

عباس آل حميد

الذات الخالدة

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

• لتكون أنت •



الذات الخالدة



من مشروع نظرية النشأة الإسلامية



الذات الخالدة

لتكون أنت

عباس آل حميد

الطبعة الأولى — 2026

مشروع نظرية النشأة الإسلامية

حقوق النشر والبيانات

حقوق النشر والملكية الفكرية محفوظة لعباس علي محمود، المعروف أدبياً باسم عباس آل حميد © 2026.

يُسمح بالاعتباس الموجز لأغراض البحث والمراجعة والتعليم، مع إثبات اسم المؤلف وعنوان الكتاب والمصدر. ويُسمح بتداول النسخة الإلكترونية الرسمية الكاملة غير المعدلة لأغراض غير تجارية وفق سياسة الإتاحة المبينة في هذا الكتاب. ولا يجوز تعديل الكتاب أو اختصاره أو ترجمته أو دمجه في إصدار آخر أو استغلاله تجارياً، كلياً أو جزئياً، من دون إذن مكتوب.

الطبعة أو صفة الإصدار: الطبعة الأولى، 2026

سنة ومكان النشر: 2026 — مسقط، سلطنة عُمان

البصمة الناشرة: مشروع نظرية النشأة الإسلامية

ردمك (ISBN): 978-99992-2-614-1

المكتبة الإلكترونية: <https://abbasalhumaid.com/library/>

التصويبات والملاحظات: عبر صفحة المكتبة أو نموذج التواصل في الموقع الرسمي

للاستشهاد بهذا الكتاب

آل حميد، عباس. الذات الخالدة: لتكون أنت. الطبعة الأولى. مسقط، سلطنة عُمان: مشروع نظرية النشأة الإسلامية، 2026.

المحتويات

6	من مشروع نظرية النشأة الإسلامية
7	المقدمة استعادة المقام
14	الفصل الأول أنت في الرحم الثاني
31	الفصل الثاني الفريضة المغيبة
54	الفصل الثالث أبعادك الأربعة
70	الفصل الرابع سنن الوجود
89	الفصل الخامس سنن الاحتكاك
119	الفصل السادس صناعة الإرادة
135	الفصل السابع حركة الجوهر
153	الفصل الثامن المدد الإلهي
166	الخاتمة الصديقية: الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي
175	كشاف مفاهيم الكتاب
183	قائمة مراجع مختارة
186	من أين تتابع القراءة؟
187	رسالة المؤلف إلى القارئ
188	إتاحة المعرفة
189	عن المؤلف
191	كتب مشروع نظرية النشأة الإسلامية

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

نظرية النشأة الإسلامية مشروع فكري تفسيري داخل الرؤية الإسلامية، يدرس تكون الإنسان وحركته الوجودية ونموه وسلوكه ورسالته. وهو اجتهاد بشري لا يساوي الإسلام نفسه، ولا يحل محل العقيدة أو الفقه أو التفسير أو العلوم المتخصصة. وهو ليس كتاباً واحداً، بل منظومة من ستة كتب، لكل واحد منها سؤاله ووظيفته ونبرته، ويكمل بعضها بعضاً من غير أن يكرر أحدها وظيفة الآخر.

خريطة الكتب الستة

① «المنظومة الفكرية الإسلامية» — الأساس الرؤيوي وموضع الشرح الكوني.

② «نظرية النشأة الإسلامية» — المتن المرجعي الضابط للنظرية.

③ «الذات الخالدة» — كتاب الإنسان وتكوّنه ومساره.

④ «لا حدود» — المنفذ الشعبي للقوانين والنقد المقارن.

⑤ «عيش سعيداً» — منفذ التدبير والمعاشية.

⑥ «رحلة كادح» — منفذ التجسيد السردية.

ويضم كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» في مطلعها دليل القارئ إلى المشروع وكتبه ومسارات قراءته، وفي آخره معجماً مرجعياً مبسطاً لمصطلحاته. وهما جزءان من الكتاب المرجعي نفسه، وليساً مجلداً مستقلاً عنه ولا كتاباً سابغاً داخل منظومة الكتب الستة.

موقع هذا الكتاب في المشروع

يختص هذا الكتاب ببناء صورة الإنسان داخل المشروع: تكوّنه، وأبعاده، وحركته الوجودية، ومسيره إلى الله. ويسأل: من هو هذا الشخص الإنساني الواحد الذي تتحرك فيه القوانين؟ وما الذي يتكوّن فيه في الدنيا؟ وكيف تستمر هويته بعد الموت، بإبقاء الله، حاملاً ما صار إليه، من غير أن تختزل ذاته في الصورة الوجودية التي اكتسبها؟

استعادة المقام

حين نتأمل — بتصديق كامل — إخبار رب العالمين بأنه جعل الإنسان خليفة له في الأرض دون الملائكة والجن وسائر المخلوقات، ندرك أننا أمام حقيقة أكبر بكثير مما اعتدنا أن نراه في أنفسنا: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].¹

ثم نستحضر دهشة الملائكة من هذا الاختيار العظيم، وتساؤلهم الذي يكشف ثقل المقام الذي منح للإنسان: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. فهم — مع طهارتهم وقربهم — رأوا في هذا الكائن الجديد قابلية للفساد وسفك الدماء، ومع ذلك اختاره الله للخلافة. وكأن في الإنسان سرّاً أعظم مما يظهر، واستعداداً خفياً لم يكشف للوجود بعد.

ثم نقف عند اللحظة التي أمر الله فيها الملائكة جميعاً بالسجود لآدم عليه السلام، بعد أن سوّاه ونفخ فيه من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ

¹ في ضبط معنى الاستخلاف وإضافة الروح: الاستخلاف تكريم وأمانة في الأرض داخل العبودية، ولا ثبت آية البقرة: 30 وحدها تفوق كل إنسان على جميع الملائكة والمخلوقات. وإضافة الروح إلى الله إضافة تشریف وملك لروح مخلوقة، لا تبعيضاً ولا حلولاً. انظر: الطباطبائي، «الميزان في تفسير القرآن»، تفسير البقرة: 30، والحجر: 29، والجمعة: 13.

رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿[الحجر: 29]﴾. وهنا تبدأ صورة الإنسان في القرآن بالتشكل على نحو مهيّب؛ فالإنسان ليس مجرد جسد من طين، بل كائن يحمل نفخة من روح الله، ويحمل معها قابلية للمعرفة، والوعي، والإرادة، والتجاوز، والصعود. ثم يأتي التكريم بعد ذلك في صورة أخرى: تسخير السماوات والأرض وما فيهما لخدمة هذا الإنسان: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجنّة: 13].¹

لكن المشهد لا يكتمل إلا حين نستشعر ثقل الأمانة التي حملها الإنسان؛ الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال، وأبت حملها، بينما حملها الإنسان بكل ما فيها من تبعات ومسؤولية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: 72]. ثم تأتي الغاية النهائية لهذا الطريق كله، الغاية التي يكشفها الله في قوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: 55].

حينها ندرك تماماً أننا لسنا مخلوقات عادية، ولسنا مجرد كائنات تمتلك عقلاً متطوراً أكثر من غيرها، بل نحن الكائن الذي اختير للخلافة، وحمل الأمانة، وسُخِّرَ له المخلوقات، وفتح له باب القرب من الله. نحن نحمل في داخلنا من الإمكانات والمعاني ما لا نكاد ندرك منه إلا القليل. وقد تجلّى شيء من ذلك حين علم الله آدم ما لم تعلمه الملائكة، فوقفوا معترفين بحدود علمهم أمام ما أودعه الله في الإنسان: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

هذا — باختصار — هو الإنسان كما يقدمه القرآن. هذا هو أنت في كتاب الله.

1 الطباطبائي، «الميزان في تفسير القرآن»، تفسير البقرة: 30، والحجر: 29، والجنّة: 13.

الآن ضع الكتاب جانباً للحظة، واستحضر يومك بالأمس. استيقظت متأخراً قليلاً، فاحتسيت قهوتك على عجل وأنت تتصفح البريد والرسائل. قدت سيارتك وسط زحام الصباح، بينما كان ذهنك يفتش في أجندة اليوم قبل أن يبدأ اليوم أصلاً. دخلت اجتماع التاسعة وأنت لم تستفق بعد تماماً، وتنقلت بين الرسائل وبنود الأعمال والمكالمات السريعة، حتى صار يومك سلسلة متصلة من الاستجابات المتلاحقة. تناولت غداءك أمام شاشة، وحضرت اجتماعين آخرين بعد الظهر، ثم خرجت منهكاً دون أن تعرف على وجه الدقة أين ذهب كل ذلك الوقت. عدت إلى بيتك، وجلست ساعة أمام التلفاز أو الهاتف، قبل أن تنام استعداداً لتكرار اليوم نفسه غداً.

أين الخليفة في كل ذلك؟ أين حامل الأمانة التي أشفقت منها الجبال؟ أين الإنسان الذي سخرت له السماوات والأرض؟ وكيف تحول الكائن الذي خلق لهذا المقام العظيم إلى شخص يستهلك أيامه بين المهام المتراكمة، والإشعارات، والجداول، والقلق الصامت الذي لا ينتهي؟

هذه الفجوة — بين ما أعلنه الله لك، وما تعيشه فعلياً في يومك — هي الموضوع الحقيقي لهذا الكتاب. قف عندها قليلاً؛ فهي لم تنسع صدفةً، ولم تشكل تلقائياً، بل تسهم في اتساعها عوامل داخلية وخارجية: من التزيين والهوى، إلى أنماط الثقافة والحياة المعاصرة. ومن بين هذه العوامل ذلك الوعد القديم الذي أطلقه إبليس قبل أن يهبط من الجنة: ﴿لَأَزِينَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُورِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: 39].

ووفاءً بهذا الوعد، لم يكن التزيين دائماً في صورة المعصية المباشرة، بل كثيراً ما جاء في صورة «الحياة الطبيعية» نفسها؛ في صورة الجري الدائم، والانشغال

المستمر، واللهات الذي لا ينتهي. يوهمك أن الطمأنينة على بعد إنجاز آخر، أو ترقية أخرى، أو رقم أكبر، أو اعتراف أكثر. فإذا وصلت إلى ما كنت تظنه غاية، دفعك إلى ما بعدها، ثم إلى ما وراءها، حتى تتحول الحياة كلها إلى مطاردة مؤجلة لا تصل أبداً إلى نقطة الاكتفاء. ﴿وَمَا يَعْدهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120].

ولم يعمل هذا التزيين وحده. فقد وجد في عصرنا أرضاً خصبة داخل منظومات اقتصادية وثقافية تقيس الإنسان كثيراً بما ينتج ويستهلك، حتى يوشك أن يرى نفسه وحدة أداء داخل آلة أكبر. وقد نبه إي. ف. شوماخر في كتابه «الصغير جميل» إلى أن أزمة الحضارة الصناعية ليست اقتصادية فحسب، بل تمس معنى الإنسان وعلاقته بالعالم¹ ولا يعني ذلك رفض الإنتاج أو السوق، بل رفض أن يصيرا الميزان النهائي لقيمة الإنسان.

ولاحظ أخطر ما في هذه الخرائط الذهنية: أنك — في الغالب — لم تختبرها بنفسك، لكنها لبّست عليك بهدوء حتى أصبحت تراها بديهية. ترتديها كل صباح دون أن تشعر، وتقيس بها نفسك ومن حولك: من الأكثر إنجازاً؟ من الأكثر حضوراً؟ من الأكثر نجاحاً؟ ثم تبدأ — من حيث لا تدري — في تقييم ذاتك بالقيمة التي تمنحها لك المنظومة، لا بالقيمة التي أعلنها الله لك منذ البداية. وهذا، بالضبط، ما يحول بينك وبين استشعار المقام الذي خلقت له.

هذا الكتاب محاولة لبناء خريطة أوسع. لن يعذك برفع إنتاجيتك بنسبة محددة، ولا بقائمة عادات تضمن لك النجاح، ولا بفكرة توهمك أن رغبتك وحدها

¹ E. F. Schumacher, Small Is Beautiful: A Study of Economics as if People Mattered. London: Blond & Briggs, 1973.

استُخدم للاستشهاد بنقد اختزال الإنسان والطبيعة في منطق الإنتاج والاستهلاك.

تصنع الواقع. فهذه الأدوات قد تنفع في مواضعها، لكن المشكلة الأعمق عند الإنسان ليست أداءً فقط، بل رؤية؛ وليست تنظيم وقت فحسب، بل معنى ووجهة.

ما أطرحه هنا هو رؤية استراتيجية للحياة نفسها. وكما أن المؤسسات الكبرى لا تبدأ بالتفاصيل التشغيلية قبل أن تحدد رؤيتها واتجاهها، فإن الإنسان أيضاً يحتاج إلى بوصلة يعيد بها ترتيب أهدافه، لكن لا على ضوء معايير السوق وحدها، بل على ضوء أصله الأخروي ومقامه الحقيقي. يحتاج إلى إطار متكامل يفهم به نفسه، ويعيد من خلاله تعريف النجاح، والأولوية، والسعي، والعلاقات، والعمل، حتى يتحرك في حياته اليومية وهو يعرف إلى أين يتجه، ولماذا يتجه أصلاً.

ولعل من قرأ لي كتاب «لا حدود» يلتقي هنا ببعض ما عرفه هناك — الأبعاد الأربعة، والصدق الذاتي، والسير إلى الله. غير أن الكابيين يختلفان في التأصيل والتطبيق. كان «لا حدود» دليلاً عملياً، يأخذ بيدك خطوة خطوة عبر التمارين والممارسات. أما «الذات الخالدة» فيمضي إلى الجذور التي تقوم عليها تلك الممارسة: لماذا أنت كما أنت، وما حقيقة هذه الأبعاد، وكيف تترسخ الصفة في نفسك حتى تدخل في صورتك الوجودية. هذا الكتاب يؤسس الرؤية، وذاك يترجمها إلى سلوك. فإن وجدت هنا مفهوماً تعرفه، فلن تجده مكرراً، بل ستراه من عمق جديد — كمن عاد إلى بيت يعرفه فدخله هذه المرة من بابه الأصلي.

وقبل أن نبدأ الرحلة، دعني أصارحك بما أرجوه لك من هذا الكتاب، وما لا أملكه لك. أرجو أن يمنحك لغةً أدق لما تعيشه، وأن يوسع زاوية نظرك، وأن يعينك على رؤية الصلة بين نفسك وربك وعملك ومصيرك، وآمل أن تجد فيه

إجابات عن أسئلة ربما حملتها في داخلك سنوات دون أن تجد لها صياغة واضحة. أما ما لا أملكه لك فهو أن أغَيّر واقعك الخارجي بمجرد القراءة، أو أن أقدم جواباً نهائياً لكل سؤال فيك. وما يتحول فيك بعد ذلك رهين صدق القراءة، والعمل، والتوفيق.

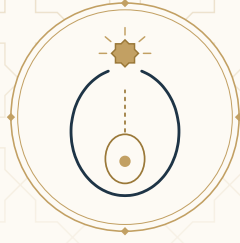
تنظم الرحلة في ثمانية فصول مترابطة. يبدأ الأول بصورة الدنيا بوصفها رحماً ثانياً تتكوّن فيه النفس. ويعيد الثاني تأصيل تطوير الذات بوصفه تزكية وعبودية. ويقرأ الثالث الإنسان الواحد من أربع جهات متداخلة: الجسد، والقلب، والعقل، والروح. ثم يضعه الرابع داخل سنن الأسباب والقابليات والأضداد، ويختبر الخامس هذه الصورة في الاحتكاك والألم والبيئة والوسوسة. ويصل السادس إلى الإرادة والصدق الذاتي، والسابع إلى الشاكلة والوجهة وحركة الجوهر، ثم يعيد الثامن كل السعي إلى أصله: المدد الإلهي الذي يسبق سعي الإنسان ويصحبه ويتجاوزه ويفتح له إمكان الثمرة. وتنتهي الرحلة بالصدقية بوصفها الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي، مع بقائها ذات مراتب في الشدة والسعة.

اقرأ هذا الكتاب على مهل؛ فهو يصلح أن يرافقك أسابيع لا أياماً. خذ الفصل على دفعات، وتوقف عند الأسئلة التي تكشف لك موضعاً في نفسك، لا عند كل عبارة جميلة. وأعدّ لنفسك دفترًا تدوّن فيه ما يستوقفك؛ فإذا صادفتك فقرة تخاطبك بشكل خاص، عد إليها مرة أخرى، أو ناقشها مع من تثق بعقله وصدقه — أختاً كان أو صديقاً؛ فقد يفتح لك الحوار آفاقاً تفوتك وحدك.

المقصود ليس أن تحول القراءة إلى برنامج تدريبي، بل أن تمنح المعنى وقتاً كي يستقر ويختبر نفسه في الحياة.

بقي سؤال أخير قبل أن نبدأ: إن كنت بهذا المقام في كتاب الله، فلماذا تشعر بهذه الضالة في يومك؟ بهذا السؤال نفتتح الفصل الأول.





الفصل الأول

أنت في الرحم الثاني

هنا يبدأ الفصل من تلك الفجوة نفسها: أين وقع الخلل بين المقام الذي قرأته في كتاب الله، واليوم الذي تعيشه؟

الخلل ليس فيك وحدك، بل في تصورك للموضع الذي أنت فيه. فالدنيا التي قد تعاملها كأنها وطنك النهائي ليست إلا طوراً من أطوار تكونك. وما تجده من ضيق، رغم ما في العالم من سعة ومتعة وفرص، يذكرك بأن غاية الإنسان لا تستنفدها الدنيا، وأن الروح لا يكتمل مقصدها بما يمنحه هذا العالم وحده.

ولأن الفكرة، حين تقال بهذه الصورة المجردة، قد تبدو بعيدة عن الإدراك المباشر، فإننا نحتاج إلى صورة أقرب إلى الفطرة الإنسانية؛ صورة يفهمها كل إنسان دون عناء: استعارة الجنين في رحم أمه.

استعارة الجنين: الرحم الأول والرحم الثاني

تأمل الجنين وهو في رحم أمه: كائن صغير يعيش في مساحة محدودة، في ظلام تام، ويصله الأكسجين والغذاء عبر المشيمة والحبل السري. تلك هي دنياه الكاملة. ولو افترضنا أنه قادر على التفكير، لاستنتج بثقة مطلقة أن الرحم هو كل شيء، وأن الجدار هو حد الكون، وأن الظلام طبيعة الوجود، وأن هذا السائل هو الشكل الوحيد الممكن للحياة. ولو حاول أحد أن يخبره أن خارج هذا الرحم عالماً آخر، فيه شمس تضيء، وألوان لا تحصى، وأصوات، وأنفاس، ووجوه، ودفع يد تحتضنه، لظن أنه يتحدث عن شيء مستحيل.

لكن الحقيقة أن كل ما ينمو في الجنين داخل الرحم إنما ينمو استعداداً لعالم خارجه. فعيناه اللتان لا تريان شيئاً الآن خلقتا لنور الشمس، وورثاه اللتان لا تستنشقان هواءً خلقتا للهواء، ويداه اللتان لا تمسكان شيئاً خلقتا لتمسكاً. الرحم، في حقيقته، ليس بيتاً، بل محطة تكوين. والجنين، في كل لحظة يقضيها هناك، يتهباً لعالم يجله تماماً، لكنه قادم إليه لا محالة.

وهذه الصورة تقرب جانباً من حالك أنت.

يمكن أن ننظر إلى الدنيا، على سبيل الاستعارة، بوصفها رحماً ثانياً. ففي الرحم الأول تكون بدتك من غير اختيار منك، وفي هذا الطور تكون نفسك عبر المعرفة والاختيار والعمل. ووجه الشبه هو التكون داخل طور محدود تمهيداً لنشأة أخرى، لا المطابقة بين العالمين؛ فأنت هنا فاعل مختار، ولست جنيناً سلبياً. وقد يخادعك ظاهر الدنيا فتحسبها وطناً نهائياً يتسع لكل ما فيك؛ غير أن اتساع الكون نفسه لا يحول الدنيا إلى غاية، بل يذكر بك بضالة العمر أمام ما وعد الله به من حياة أخرى.



نشأة أخرى

ما وعد الله به
من حياة أخرى

الرحم الثاني

تكوّن نفسك عبر المعرفة
والاختيار والعمل

الرحم الأول

تكوّن بدنك
من غير اختيار منك

التكوّن داخل طور محدود تمهيداً لنشأة أخرى

ارفع بصرك قليلاً عن حدود يومك. مجرتنا، درب التبانة، تضم ما يقدره العلماء بنحو مئة إلى أربعمئة مليار نجم، وتمتد قرابة مئة ألف سنة ضوئية. وتشير الصور العميقة إلى وجود مئات المليارات من المجرات في الكون المرصود؛ وقد وصلت دراسة منشورة عام 2016، بعد احتساب المجرات الخافتة التي لا نراها مباشرة، إلى تقدير يقارب تريليوني مجرة. ويبلغ قطر الكون المرصود نحو اثنين وتسعين مليار سنة ضوئية¹.

ومع كل هذه السعة، لا يملك العلم تقديراً موثقاً لحجم الكون كله، ولا يحزم أهو محدود أم غير محدود. هذه الأرقام لا تقيس الآخرة، لكنها توسّع الخيال

¹ National Aeronautics and Space Administration (NASA). "Our Milky Way Galaxy: How Big is Space?" 2 April 2019; "What is the Universe?" updated 29 October 2024; "How Big is Space? We Asked a NASA Expert: Episode: 61," 21 May 2025; and NASA Hubble Mission Team, "Hubble Reveals Observable Universe Contains 10 Times More Galaxies Than Previously Thought," 13 October 2016.

وفي تقدير عدد المجرات بنحو تريليوني مجرة بعد احتساب المجرات الخافتة غير المرصودة مباشرة:

Christopher J. Conselice, Aaron Wilkinson, Kenneth Duncan, and Alice Mortlock. "The Evolution of Galaxy Number Density at $z < 8$ and Its Implications." The Astrophysical Journal 830(2), 2016, article 83. DOI: 10.3847/0004-637X/830/2/83.

الأرقام الواردة في المتن تقديرات علمية تقريبية؛ وتقدير التريليوني مجرة خاص بنموذج الدراسة، لا تعداداً نهائياً متفقاً عليه، ولا يملك العلم تقديراً موثقاً لحجم الكون كله.

الذي يستقبل وعدّها: ما تراه هائلاً إلى حد العجز عن تصويره ليس نهاية الوجود، والدنيا التي تستغرقك ليست إلا طوراً محدوداً من رحلة أبعد.

ثم اقرأ قول الله عن جنة واحدة من جنات الآخرة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]

تأمل التعبير: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾. لا تمنحنا الآية قياساً هندسياً للجنة، لكنها توسّع أفق القارئ ليتجاوز حدود عالمه المألوف، وتقرر أن ما أعده الله للمتقين يتجاوز ما نتسع له مخيلتنا. والدنيا، مهما عظمت في العين، تبقى طور عمل لا دار الجزاء النهائي.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 64].

توقف عند كلمة «الحيوان» في الآية؛ فهي صيغة المبالغة من الحياة. وكأن القرآن يقول لك: لا تحذعك حركة هذه الحياة وصخبها؛ فالحياة الحقيقية لم تبدأ بعد. أما هذه التي تعدّها حياة، فليست إلا مرحلة مؤقتة، أقرب إلى لعب عابر داخل رحم كبير.

وقد لخّصت كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هذا المعنى حين دعت إلى أخذ الزاد من الممر للمقر: الدنيا مجال عبور وعمل، لا موضع إقامة نهائية.¹ ومن رآها كذلك لم يحتقرها؛ بل عرف قيمتها بوصفها الفرصة التي لا تكرر لتكوّن النفس والعمل للقاء الله.

¹ نهج البلاغة، الخطبة 203: «إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، نخذوا من ممركم للمقرم». استعمل المعنى في المتن للدلالة على أن الدنيا موضع عبور وعمل، لا موطن إقامة نهائية.

ولأن الجنين لا يعلم بالعالم الخارجي، فهو لا يفهم لمَ تتشكل أعضاؤه أصلاً. أما أنت، فقد أُخبرت. أُخبرت أنك في طور التكوّن، وأن ثمة منزلاً تهباً لك، وأُريت بعض صفات أهله وبعض شروط الدخول إليه. وهنا يفترق مسارك عن مسار الجنين: هو يتكوّن دون أن يدري، وأنت تتكوّن وأنت تدري. هو لا اختيار له فيما سيكون، أما أنت فتشارك بإرادتك واختياراتك، داخل ما أقدرك الله عليه، في تشكيل الصورة الوجودية التي تلقى بها الآخرة، بسبق خلق الله وهدايته ومدده وتوفيقه، لا استقلالاً: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۖ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10].

أعضاء بدنك اكتملت في الرحم الأول من غير جهد منك، أما كمالات نفسك فلا تترسخ في هذا الرحم من غير سعيك وهداية الله ومدده. تتكوّن في النفس كمالات وصفات: الصبر، والصدق، والكرم، والحياء، والشكر، والرضا، والإحسان. وتتفاعل هذه الكمالات مع استجابتك للحق، فتسهم في قربك من الله أو بعدك عنه؛ فالقرب ليس صفة مفردة في القائمة، بل علاقة تنتظم بها الكمالات والوجهة. وليست هذه أعضاء تشريحية، لكنها تدخل في صورتك الوجودية المكتسبة. وستخرج بها — أو بضعفها، أو بغيابها — إلى الحياة الحقيقية. والوقت في هذا الطور محدود، ولحظة الولادة قادمة لا محالة، سواء أكنت مستعداً لها أم لم تكن.

لماذا لا يكفيك هذا العالم؟

لماذا، حين تبلغ ما كنت تظنه غاية، ينطفئ فيك الحماس سريعاً ويعود الفراغ؟ لماذا لا يشبعك المال بعد بلوغه، ولا المنصب بعد التمكن منه، ولا الإنجاز بعد

تحققه؟ لماذا تبدو أجمل لحظاتك ناقصة على نحو غامض، كأنها تتوقف قبل أن تكتمل؟ ولماذا يعود إليك، مهما امتلأت يدك، ذلك الإحساس الخفي بأن في داخلك مساحة لا يصل إليها شيء مما تملك؟

الجواب، في أبسط صورته، أن ما في داخلك أوسع مما حولك.

أوسع، لا لأنك أعظم من العالم أو لأن فيك جزءاً من الإله، بل لأن غاية الإنسان لا تستنفدها الحاجات المادية والنجاحات العابرة. فيك قابلية للمعرفة والعبودية والمحبة والمعنى، وهذه القابلية تبقى تسأل عن غاية أرفع من كل ما يفنى. والدنيا تؤدي وظيفتها حين تمنحك ميداناً للعمل والتعلم والعلاقة، لكنها لا تملك وحدها جواب السؤال الأخير: لمن تعيش، وإلى أين تمضي؟

تخيل أنك وضعت سمكة في كأس من الماء بدل المحيط. الكأس صالح للحياة، والماء موجود، والسمكة قادرة على التنفس، والحرارة مناسبة. ومع ذلك، تبقى هناك حقيقة لا تختفي: هذا ليس موطنها. ليس لأن الكأس معيب، بل لأن السمكة أوسع من سعته. وهذا، تحديداً، ما يفعله العالم بروحك. إنه يمنحك ما تحتاجه للبقاء، لكنه لا يملك أن يمنحك ما تحتاجه للاكتمال.

ولهذا لا نطلب من الدنيا كمالاً لم تُجعل له. قد يطول الحزن، وقد يترك الجرح أثراً لا يزول كله، وقد يفيض الفرح في لحظات حقيقية؛ لكن شيئاً من ذلك لا يصير وحده معنى الوجود كله. الحياة الدنيا متغيرة، والإنسان فيها محتاج إلى علاج وصحبة وذكر وعمل، لا إلى إنكار ألمه أو مطالبة نفسه بأن تلتئم في موعد محدد.

ومن هنا نفهم جانباً من حركة الناس في الحياة. يطلب بعضهم المال أو المكانة أو المتعة لما تمنحه من أمن أو حرية أو اعتراف، وهذه حاجات واقعية لا تُختزل في وهم. لكن الخطأ يبدأ حين يُطلب من الشيء المحدود أن يمنح القلب معنى نهائياً، أو حين تتحول الوسيلة إلى معيار القيمة كلها.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: 124].

تأمل معنى الضنك: لا يلزم أن تكون اليد خالية حتى يضيق العيش. يشرح «الميزان» و«الأمثل» كيف قد يعيش الإنسان في سعة، ثم يضيق عليه حرصه وخوفه مما يتعلق به؛ فلا يطمئن إلى ما عنده، ويظل يطلب ما ليس عنده أو يخشى زواله. المشكلة هنا ليست المال أو المكانة، بل أن يصيرا المرجع الذي يحكم القلب والاختيار. وهذا وجه في تفسير ضنك الإعراض عن هداية الله، لا حصر لمعنى الآية في ضيق الأغنياء، ولا حكم على كل ناجح يشعر بالفراغ. فالألم وحده لا يثبت الإعراض، كما لا يثبت الهدوء صحة الوجهة.¹

وفي المقابل، يقول الله عن المتصل به: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

تضع الآية الذكر في قلب الطمأنينة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. والذكر أوسع من ترديد اللفظ؛ إنه حضور الله ومرجعيته في الوعي والقلب والنية. لا

¹ ضنك الإعراض: الطباطبائي، «الميزان في تفسير القرآن»، ج14، تفسير طه: 123-127 والبحث الروائي المتصل به؛ ومكارم الشيرازي وآخرون، «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل»، تفسير الآيات نفسها، ولا سيما بيان المعيشة الضنك وآثار الإعراض. الاستفادة هنا من شرح ضيق العيش المتصل بالتعلق، لا من حصر الأقوال في هذا الوجه أو تعميمه على كل ألم.

يلغي العلاج أو الحاجة أو الأسباب، لكنه يمنع القلب من أن يجعل سبباً متغيراً رباً لسكينته.

أنت لست هنا لتجد الراحة الكاملة، بل لتكتشف الطريق إليها. ولست هنا لتملأ الفراغ بأي شيء، بل لتفهم من أين يأتي الامتلاء الحقيقي. كما أنك لم تخلق لتعيش حياة مكتملة في هذا العالم، بل لتدرك أنك خلقت لحياة أخرى يكتمل فيها معنى وجودك. وكلما أطلت البحث عن اكتمالك في الدنيا، طال شعورك بالتبعية فيها؛ لأن الروح لا تشبع بالمتاع وحده، بل بالمعنى. ولا تمتلئ بالامتلاك وحده، بل بالاتصال. ولا تستريح بالأشياء وحدها، بل باليقين: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

وتأمل كلمة ﴿الْغُرُورِ﴾ في الآية. فالغرور ليس الكذب المباشر؛ الكذب أن يقال لك ما ليس صحيحاً. أما الغرور، فهو أن يعرض عليك شيء صحيح في ذاته، لكن يصور لك على أنه أكثر مما هو عليه. الدنيا متاع، وهذا صحيح. لكن الوهم يبدأ حين تظن أنها متاع يكفيك، أو متاع يدوم، أو متاع هو الغاية لا الوسيلة. ليست المشكلة في أن تستمتع بالدنيا، بل في أن تصدق أن متعتها هي موطنك الأخير.

وليس كل نقص تشعر به دليلاً على فساد فيك، كما ليس كل ضيق دليلاً روحياً. قد يكون في حياتك احتياج حقيقي أو مرض أو ظلم أو علاقة تحتاج إلى إصلاح. لكن حتى بعد أداء حق هذه الأسباب، يبقى في الإنسان سؤال لا تجيبه الأشياء وحدها: سؤال الغاية واللقاء. وهذا هو الذي يردّ الدنيا إلى موضعها، فلا تُحتقر ولا تُعبد.

إذن، ما الذي تفعله هنا؟

إذا لم تكن الدنيا موطن القرار النهائي، فما وظيفتها؟ لا يجيب الكتاب بأن الإنسان يحتاج إلى الألم لذاته، ولا بأن كل حادثة صُممت له على هيئة درس شخصي. الجواب الأقرب: الدنيا دار تكليف وتكون؛ فيها تظهر المعرفة في الاختيار، ويتحول الاختيار المتكرر إلى صفة، وتتكشف الوجهة في العمل.

واستعارة «الأعضاء الروحية» نافعة إذا بقيت استعارة. الصبر والصدق والرحمة واليقين ليست أعضاء تشريحية، لكنها كمالات لا تُحمل إلى الآخرة كالممتلكات، بل تصير هيئة في النفس. وما يُطلب منك ليس أن تخترعها من العدم، بل أن تنمي قابليات وهبها الله لك، وتزيل ما يحجبها، وتطلب منه التوفيق.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]. الابتلاء هنا يضع الفعل في ميدان الظهور والمسؤولية؛ لا لأن الله يحتاج إلى أن يعلم، بل لأن ما في القدرة لا يصير فعلاً إلا في الزمن، ولأن الإنسان يعرف نفسه حين يختار ويواجه أثر اختياره.

وقد نتيح المقاومة ظهور قوى لا تظهر في الراحة وحدها: شجاعة عند الخوف، وصبر عند المشقة، وعدل عند امتلاك القوة. لكن ذلك إمكان لا نتيجة آلية؛ فالألم قد يجرح ويحتاج إلى علاج، والظلم يجب دفعه، والمرض لا يُطلب من أجل النمو. الذي يدخل في تكوين النفس هو استجابتها وما تكرر منها، لا الألم بوصفه ألماً.

وقد رأى الجيل الأول هذا المعنى عياناً. جاء خباب بن الأرت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة، فقال: ألا تستنصر لنا؟

ألا تدعو لنا؟ فذكّرهم النبي بما لقيه المؤمنون قبلهم من أذى شديد لم يصدهم عن دينهم، ثم أقسم أن الله سيم هذا الأمر، ونبيهم إلى الاستعجال.¹

لم يعدهم بزوال الضغط في الغد، ولم ينكر ألمهم؛ ثبت وجهتهم داخل الألم. فالضغط نفسه لم يصنع إيمانهم، لكنه كشف معدنه؛ وما اختاروه من صبر وثبات صار جزءاً مما هم عليه، وحُفظ لهم عند الله.

ولهذا جاء الميزان: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، لا أكثر حركة فحسب. إحسان العمل يجمع صحة الفعل وصدق القصد وبذل الوسع. وقد يكون عمل صغير في موضعه أثقل من ضجيج كبير، لكن هذا لا يجعل النية بديلاً عن الواجب أو الإتيان.

ويصف القرآن حركة الإنسان إلى ربه بالكدح: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]. فالكدح هو الحركة الوجودية الملائمة للإنسان عبر الزمن نحو لقاء الله ومآله عنده. أما كيفية ما يصير إليه داخل هذا المسار — قريباً أو بعداً، كمّالاً أو نقصاً — فتتحدد بما يتكوّن فيه وبوجهة استجابته للحق داخل البيان والوسع. وقد يختلط في تجربته الجهد بالرجاء والنجاح بالتعثر، لكن هذه أحوال تقع داخل الكدح، لا تعريف له. والمهم ألا يضيع التعب بلا وجهة، وأن يتحول السعي إلى عبودية وتزكية لا إلى استنزاف للذات.

مهمتك إذن أعمق من جمع المال أو المكانة، من غير أن تصبح هذه الأشياء مذمومة في ذاتها. قد تكون أمانات نافعة ومجالات خدمة. لكن السؤال الذي

¹ صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، ح 3612، من حديث خباب بن الأرت. استُخدمت القصة لإثبات أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثبت الوجهة داخل الشدة، من غير أن يجعل الألم مطلوباً في ذاته.

يحكمها هو: ماذا تفعل في نفسك، ولأي غاية تستعملها، وما الذي يبقى منك بعد أن تزول؟

فالجواب لا يكمن في شكل الدنيا وحده، بل في الشكل الذي تخرج به أنت منها. تبدل الظروف والممتلكات والألقاب، أما ما يرسخ في النفس من معرفة وخلق ووجهة فيدخل في صورتك الوجودية المكتسبة، ويصير جزءاً مما تلقى الله به.

هذه هي «الذات الخالدة»: الشخص الإنساني الواحد، الذي تكون نفسه الإنسانية الواحدة ملاك هويته، ويستمر بعد الموت بإبقاء الله، حاملاً ما تكون فيه من معارف ومحبات ونيات وملكات ووجهة؛ لا الصورة وحدها، ولا ذاتاً مستقلة عن الله. نكوّن نفسك عبر ما أعطيت وما وقع عليك وما اخترته، وتشارك كل يوم، داخل ما أقدرك الله عليه، وبسبق هدايته ومدده، وبقدر العلم والقصد والاختيار والوسع، في تشكيل شاكلتك وصورتك الوجودية.

تأمل يومك بالأمس: اجتماعاً أظهر طريقة استعمالك للقوة، أو كلمة كشفت سرعة غضبك، أو مسؤولية أتاحت لك الوفاء. الحدث لا يخبرك وحده بالحكم النهائي على نفسك، لكنه يمنحك مادة للحاسبة: ما الذي اخترته؟ وما الطريق الذي جعلته أيسر بالتكرار؟

بدأت بفطرة وقابليات ومعطيات لم تخترها كلها، وستلقى الله بنفس أسهمت اختياراتك وأعمالك في تشكيلها. لا تتحمل ذنب البداية التي لم تخترها، ولا تملك النتيجة كلها، لكنك مسؤول عما علمت واستطعت ورضيت وغذيت.

وهكذا تصبح الأسئلة الاستراتيجية لحياتك: أي معرفة أطلب؟ وأي خلق أرسخ؟ وأي علاقة بالله تنظم عملي؟ ومن أكون حين تسقط الألقاب والممتلكات؟ هذه ليست أسئلة لساعة الفراغ، بل أسئلة تمنح بقية الساعات اتجاهها.

الزمن: مادتك الخام

إذا كانت الدنيا ميدان تكونك، فإن الزمن مادتها الخام. ليس مجرد ثوان تتناقص من عمرك، بل مجال تتكون فيه نفسك. فالزمن في الرحم الأول جرى فيه تكون بدنك، وفي الرحم الثاني تتكون عبره معرفتك وإرادتك وعاداتك. وكل يوم يمضي يترك أثراً، خفيفاً كان أو ثقیلاً، وإن لم تر ذلك الأثر في لحظة.

لكن الإنسان، حين ينسى موطنه الحقيقي، يقع في وهم عميق يحكم علاقته بالزمن كلها: يظن أن الزمن يعمل ضده. يرى السنوات وهي تمضي، فيشعر أنها تسلبه شيئاً منه، وأن التقدم في السن خسارة صامته، وأن ما يمر لا يعود أبداً. ينظر إلى المرأة كل عام بشيء من الخوف، وإلى التقويم بشيء من التوجس، وكأن الزمن خصم يطارده، أو سباق يخشى أن يخسره. وهذا التصوير يصبح وهماً حين يختزل الزمن في خصم لا وظيفة له إلا السلب.

فالزمن لا يعمل لك أو ضدك بمعزل عن فعلك؛ إنه المجال الذي تتراكم فيه الاستجابات. وقد تتحول تجربة إلى خبرة، وقد تبقى جرحاً يحتاج إلى علاج، وقد تمر نعمة من غير شكر. الزمن لا يضمن النضج، لكنه يمنحك فرصة التكرار والمراجعة والإصلاح. وما يبقى من الماضي ليس دائماً بصيرة؛ قد

يكون عادة أو أثراً مؤلماً، ولهذا تحتاج الذاكرة إلى معنى وعناية لا إلى تجريد كل ما وقع.

ولهذا أقسم الله بالعصر، أي بالزمن نفسه: ﴿وَالْعَصْرِ ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقَفٍۭ خُسْرٍۭ ۚ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]

ثلاث آيات قصيرة تكشف علاقة الإنسان بالزمن. أصل حاله الخسر لأن العمر ينقضي ولا يتوقف؛ ثم تستثني الآيات من يجعل هذا الانقضاء ميداناً للإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر. ليست كل لحظة تمر خسارة أخلاقية، لكن الزمن المحدود يمضي على كل حال، وما يمنحه المعنى هو ما يزرعه الإنسان فيه من حق وعمل صالح.

وإذا أردت ميزاناً أكثر دقة لقيمة الزمن، فضع عمرك كله بجوار الأبد. كل مدة محدودة، مهما بدت طويلة في داخلها، تبدو ضئيلة حين تُقاس بما لا نهاية له. نحسبون عاماً، أو ثمانون، أو حتى ألف عام... تبقى زمناً قصيراً أمام الأبد. وهذا المعنى نفسه صوره القرآن على لسان أهل الآخرة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ۚ قَالَ إِنَّ لَبِثَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112-114].

سنوات عمرك التي تبدو لك الآن طويلة وممتدة، ستتكشف بعد الموت إلى «يوم أو بعض يوم». لا لأنها لم تكن موجودة، بل لأنها قصيرة فعلاً حين تُقاس بالأبد. لقد بدت طويلة فقط لأنك كنت داخلها. أما حين تخرج منها وتنظر إليها من الخارج، فستراها كما هي: مرحلة عابرة. ولهذا كان ميزان سورة

العصر ميزاناً حاسماً لا مجازياً؛ فالوقت الذي تضيعه، أنت لا تضيعه من رصيد لا ينتهي، بل من رصيد قصير أصلاً.

ولهذا، تأمل يومك جيداً. كم ساعة أنفقتها في ما يستنزفك دون أن يبينك: التشتت، وتصفح الشاشات بلا وعي، واجترار الهم، والجدل العقيم، والقلق الذي لا ينتج شيئاً؟ وكم ساعة أنفقتها في ما يضيف إليك حقاً؟ السؤال قاس، لكنه سؤال قرآني، لأن القرآن يتعامل مع الزمن بوصفه أثن مادة بين يديك.

لكن الكدح، في فهم القرآن، لا ينحصر في عبادة مفروضة أو ذكر في خلوة؛ فكل حركة تقع أصلاً داخل هذا المسار. ويمكن لكل حركة نافعة أن تصير استجابة واعية في طريق العبودية والقرب حين توضع في موضعها الصحيح: عملك المهني، وقراءتك، وتعلمك، وكلمة تخفف بها هم إنسان، وصلة رحم، وتأمل في خلق الله، واكتساب مهارة جديدة، بل حتى نومك وراحتك إن استعدت بهما طاقتك للعودة إلى الميدان. قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77].

تأمل توازن الآية: فهي لا تفصل بين الدار الآخرة ونصيبك من الدنيا، بل تجمعهما داخل حركة واحدة. ثم تتبعهما مباشرة بقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾. وكأن القرآن يعيد ترتيب الصورة كلها: الآخرة، والدنيا، والإحسان، ليست ثلاثة طرق متعارضة، بل أبعاد مختلفة لحركة واحدة إذا استقام اتجاهها.

ولهذا، فالمعيار الحقيقي ليس نوع النشاط وحده، بل موضعه داخل خريطة. من جعل لقاء الله غايته، صار سعيه إلى الرزق عبادة، وعلمه قرابة، وراحته استعداداً، وعلاقاته باباً للنضج والإحسان. أما من جعل الدنيا غايته، فقد

يتحول حتى ذكره إلى عادة، وصلاته إلى روتين، وزكاته إلى حساب بارد. الوجهة الباطنة تمنح الحركة معناها، والعمل يكشف صدقها.

ولهذا، فالسؤال في نهاية يومك ليس فقط: «كم ذكرت الله؟»، بل أيضاً: «أين كانت أعمالي من وجهتي؟». وقد يصير العمل المباح عبادة إذا صلحت نيته، واستقام أدائه، وحُفظت فيه الأمانة، ولم يؤد إلى تضييع واجب. والعبودية هي الوجهة التي تنتظم بها الحياة، والعبادة هي التجسيد القصدي والعملي لها في الشعائر والطاعات والعمل المشروع. كما أن العبادة تحتاج إلى إخلاص وحضور حتى تؤتي أثرها الكامل في النفس. ولا تستقيم المقارنة بينهما إذا ألغت فرضاً أو جعلت النية الحسنة بديلاً عن صورة العمل الصحيحة.

فالزمن، في النهاية، مادتك الخلام. وفيه تسهم، يوماً بعد يوم، في تشكيل النفس التي ستصبحها.

في الختام

بدأنا هذا الفصل بسؤال تركته المقدمة مفتوحاً: إذا كانت لك في كتاب الله تلك المكانة العظيمة التي رأيتها، فلماذا تشعر في يومك بهذا القدر من الضالة والتشتت والاختناق؟ والآن، بعد أن قطعنا هذا الطريق معاً، نتضح الإجابة بهدوء.

أنت لست في وطنك النهائي.

أنت في الدنيا التي تقرّبها هذه الاستعارة بوصفها رحماً ثانياً؛ أوسع من الرحم الأول بما لا يقاس، لكنها مؤقتة مثله. وكما لم يكن الرحم الأول بيتاً دائماً للجنين، فالدنيا ليست بيتاً دائماً لك. وحين تضيق بك رغم ما فيها من سعة، لا

نُعجل حكماً واحداً على السبب: قد تحتاج إلى إصلاح واقع أو علاج نفسي أو بدني، وقد يوقظك الضيق إلى سؤال الغاية. والزمن ليس خصماً محضاً، هو المجال الذي تتكوّن فيه النفس التي ستلقى الله.

هذا، في أبسط صورة، ما حاولنا أن نفهمه: الدنيا طور تكوّن، والزمن مجال التحول، ولك دور مسؤول في تشكيل النفس التي ستخرج بها من هذا الطور. لم تُخلق للدنيا بوصفها غاية نهائية، بل جئت لتكوّن فيها. لا أحد يستطيع أن يختار عنك، ولا أن يحمل عنك مسؤولية ما ترضاه وتغذيه وتكرره.

وحين يستقر هذا الفهم، تتغير طريقة نظرك إلى نفسك وعملك وعلاقاتك ووقتك. لا تصير الأشياء مجرد مواد تملكها، بل مواضع اختبار وتشكّل: ماذا يفعل هذا العمل فيك؟ وأي وجهة يقويها؟ وأي صفة يرسخها؟

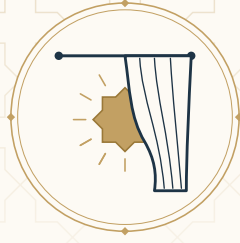
وهذه المهمة ليست خياراً ثانوياً في الرؤية القرآنية؛ فالتزكية من صميم الفلاح، والعمل موضع المسؤولية، واللقاء آت. ولهذا ينتقل الفصل القادم إلى «الفريضة المغيبة»: لا لاستخراج حكم فقهي من آية الكدح وحدها، بل لإعادة التزكية إلى مركز الحياة بعد أن تحولت عند كثيرين إلى هامش أو شعار.

أنت في الدنيا التي تقرّبها هذه الاستعارة بوصفها رحماً ثانياً: طوراً محدوداً للتكوّن قبل نشأة أوسع. لكنك، خلافاً للجنين، تعرف أنك فيه. ولأنك تعرف، صار لك نصيب من الاختيار والمسؤولية. الجنين ينتظر الولادة دون وعي، أما أنت فتبيّ نفسك لها. الجنين لا يختار شكل الأعضاء التي يخرج بها، أما أنت فتشارك كل يوم في تشكيل ما تحمله معك. الله يخلق ويهدي ويمد ويوفق، والإنسان يستجيب ويختار ويعمل؛ ومن هذا التفاعل تتكوّن الصورة التي يحملها. الجنين لا يعلم أن خارج رحمه نوراً، أما أنت فقد أخبرت.

والإخبار مسؤولية: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[المدثر: 55-56]﴾. لك اختيار حقيقي في مرتبتك، لكنه لا يقوم لحظة خارج مشيئة الله وعطائه؛ فابدأ بما تستطيع، واستعن بمن وهبك القدرة.

وقفة تأمل

قبل أن تكمل، تمهل عند فكرة هذا الفصل: أنك في رحم ثان، تتكوّن فيه نفس ستخرج بها إلى ما بعده. فما الذي رسخته فيها بالأمس؟ وما الذي سمحت له أن يتكرر حتى اقترب من أن يصير طبعاً؟ وأي فعل صغير تستطيع اليوم أن تجعله بداية هيئة جديدة؟



الفصل الثاني

الفريضة المغيبة

بعد أن يتسع وعيك بحقائق المكان والزمان، ويخفت ضجيج العالم أمام امتداد الخلود، ينهض في داخلك سؤال لا يشبه ما عرفته من أسئلة. سؤال لا يبحث عن: «أين أنا؟»، ولا «كم سأعيش؟»، ولا «ما الذي ينتظرني؟». بل يبحث عن شيء واحد: ماذا ينبغي أن أفعل الآن بهذه المعرفة؟

لأن إدراكك أن هذا العالم مقدمة، وأن عمرك لحظة، وأن مشاعرك مؤقتة، لا يكتمل معناه ما لم يتحول إلى فعل. فالمعرفة التي لا تغير اتجاه الحياة تبقى فكرة عابرة، مهما بدت عميقة. وهنا تحديداً تبدأ الفريضة المغيبة.

حين تنكشف لك حقيقة الخلود، لا يبقى أثر المعرفة واحداً في جميع الناس. قد يستمر إنسان على عادته، وقد يبدأ آخر مراجعةً جادة، وقد يتردد بين

الاثنين زمنًا. لكن المعرفة تضعه أمام مسؤولية جديدة: أن يسأل عن دوافعه ووجهته، وألا يعيش كما لو أن ما عرفه لم يصل إليه.

فالوعي وحده لا يغير الإنسان، بل ما يختاره ويعمله على ضوئه. لحظة الإدراك ليست النهاية، بل بداية انتقال المعرفة من الذهن إلى القرار.

وقبل أن نسأل لماذا غابت هذه الفريضة عن وعي المسلم المعاصر، ينبغي أن نسأل أولاً: كيف يسميها القرآن أصلاً؟ لأن اللغة التي يستخدمها القرآن في وصف هذه الفريضة، لا تعطيك اسمها فحسب، بل تكشف لك طبيعتها، ووزنها، والمكان الذي تقع فيه من مشروع الإنسان كله.

كدحك إلى ربك: حقيقة ومسؤولية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: 6]. الكدح في أصل معناه اللغوي سعيٌ يشوبه الجهد ويترك أثراً في صاحبه. أما في المعنى الذي يبنى عليه هذا الكتاب فهو الحركة الوجودية الملائمة للإنسان عبر الزمن نحو لقاء الله ومآله عنده؛ وأما كيفية ما يصير إليه في هذا المسار — قريباً أو بعداً، كمالاً أو نقصاً — فتتحدد بما يتكوّن فيه وبوجهة استجابته للحق داخل البيان والوسع. والسعي الاختياري هو كيفية استجابتك داخل هذا المسار، لا أصل الكدح نفسه. فالآية تخبر عن مسير الإنسان إلى اللقاء، لا عن نشاط اختياري يمكنه الخروج من الوجود كله بتركه.

الآية تخبر عن حقيقة المسير، ولا تقيم وحدها حكماً فقهياً مستقلاً. لكن حين نقرأها مع الآيات التي تنسب الفلاح إلى تزكية النفس، وتأمّر بالعمل الصالح، وتحمل الإنسان مسؤولية اختياره، يظهر المشروع الذي غاب عن

الوعي: أن تزكي نفسك، وأن تجعل استجابتك داخل كدحك إلى اللقاء استجابةً واعيةً للحق والعبودية.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]. الآيات لا تجعل النفس شرّاً في أصلها، بل تقرر قابليتها للطريقين ومسؤولية الإنسان عن تركيتها أو طمس ما فيها من قابلية للحق.

ولا يلزم من ذلك أن كل لحظة صعود خالص أو هبوط خالص. الإنسان قد يثبت في باب ويتراجع في آخر، وقد يمر بفترة علاج أو عجز لا تُقاس بكثرة الحركة. المقصود أن التكرار يترك اتجاهًا، وأن الإهمال الطويل ليس حيادًا كاملاً عن أثره.

ثم يقول الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]. لم يجعل الميزان كثرة العمل وحدها، بل إحسانه: صحة وإخلاصًا وإتقانًا بحسب المقام. فلا تُغني نية حسنة عن حق ضائع، ولا صورة صحيحة عن قلب يتعمد الرياء.

تلتقي الآيات في معنى واحد: حياتك حركة إلى لقاء، ونفسك قابلة للتزكية، وعملك موضع الاختبار. لا تُطلب منك صناعة ذات مستقلة، بل أن تؤدي مسؤوليتك في تشكيل النفس التي وهبك الله أصلها وقدرتها وهداها.

الكدح يصف حتمية المسار إلى اللقاء، والتزكية تصف الحركة الإيجابية التي تطهر النفس وتني قواها وكمالاتها وتعيد توجيهها إلى الحق، وإحسان العمل

يصف جودة الاستجابة حين تظهر في العالم. فإذا صحت الوجهة وحسن العمل، صار يومك كله ميداناً للعبودية والتكوّن.

والكدح لا يعني تجريد الإنهاك أو طلب الألم. قد يكون من العبادة أن تتراح حتى تقوى، وأن تنداوى، وأن تغادر ضرراً، وأن تعيد توزيع مسؤولياتك. القيمة ليست في مقدار التعب، بل في صدق الوجهة وحسن العمل داخل الوسع.

بهذا المعنى تكون التزكية «الفريضة المغيبة»: ليست تمريناً جانبياً لتحسين الصورة، بل واجباً جامعاً يجعل العبادة والعمل والعلاقة والمال مجالات لتكوّن الإنسان في عبوديته.

وأستعمل «الفلاح» هنا بمعناه القرآني الأوسع من النجاح الاجتماعي: نجاة النفس ونمائها في ميزان الله. قد ينجز الإنسان كثيراً ولا يفلح، وقد يبدو عمله صغيراً وهو يغيّر صورته الوجودية في الاتجاه الصحيح.

كيف غيبت عنك؟

إذا كانت التزكية بهذه المنزلة، فلماذا تضيق أحياناً في الوعي العام إلى مواظب متفرقة أو مجاهدات موسمية؟ ولماذا يمكن أن يكثر أداء الإنسان لبعض الأعمال، ثم يبقى أثرها في خلقه وعلاقاته أضعف مما يرجو؟

الجواب أن بين الإنسان وبين هذه الفريضة حجابين: حجاباً داخلياً يصنع الوهم داخل النفس، وحجاباً خارجياً يجعل الإنسان يؤدي الدين دون أن يدخل إلى

معناه. وسنبداً بالأول، لأن كل انحراف في الخارج يبدأ غالباً من خلل في الرؤية من الداخل.

الحاجب الأول: حين يزين لك السوء

كثيراً ما لا يسير الإنسان نحو الضلال لأنه يحب الضلال بوصفه ضلالاً، ولا يطارد الزيف وهو يعرف أنه زيف؛ بل يخوف لأن الأشياء تُعرض عليه بغير حقيقتها، فيرى الوهم في صورة الحقيقة، ويرى الظل نوراً، ويرى ما يضعفه كأنه ما سيكمله. والخطر الحقيقي ليس أن تُخدع مرة، بل أن تعيش داخل الخدعة حتى تفقد القدرة على رؤيتها أصلاً.

وقد نلخص القرآن هذه الحقيقة في آية واحدة تكاد تختصر جانباً كبيراً من علم النفس الإنساني: ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [الزل: 24]. تأمل كلمة: ﴿زَيْنَ﴾. فالمسألة لا تبدأ بالكذب الصريح، بل بالتزيين؛ أن تقدم لك الأشياء على غير حجمها الحقيقي، فتبدو أجمل مما هي، وأقرب إلى قلبك مما تستحق، وأحق بالاتباع مما ينبغي.

ولكي تدرك خطورة هذا الحاجب، تأمل طفلاً يغضب ويبكي لأنه خسر لعبة على شاشة، وكأن مصيره كله معلق بنتيجتها. تبسم لأنك ترى المشهد من الخارج. لكن هل تنتبه، في اللحظة نفسها، إلى أن كثيراً منا يفعل الشيء ذاته حين يطارد المال، أو المظاهر، أو العلامات التجارية، أو المكانة الاجتماعية، وكأنها المعنى النهائي للحياة؟

نحن نستصغر لعبة الطفل لأننا خارجها، ونعظم لعبتنا لأننا نعيش داخلها. وكلما كنت داخل اللعبة، صار أصعب عليك أن ترى أنها لعبة أصلاً. ولهذا

وصف القرآن الدنيا بهذه الصراحة المدهشة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: 20].

ويبلغ الوهم ذروته حين لا يكتفي بإبعاد الإنسان عن الطريق، بل يقنعه أنه على الطريق أصلاً: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103-104].

تأمل ثقل العبارة: لم تكن المشكلة أنهم ضلوا فحسب، بل أنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون. وهذه هي أخطر مراحل الحجاب: أن يتحول الانحراف في وعي الإنسان إلى صورة من الصواب، وأن يبدو له الهروب شجاعةً، والتشوه نضجاً، والانشغال تقدماً.

وهذا الوهم لا يخص فئة دون أخرى. فقد يقع فيه متدين يظن أن كثرة الحركة الدينية تكفي وحدها لتزكية النفس، كما قد يقع فيه إنسان ناجح في معايير الدنيا يحسب أن ما جمعه في يده هو ما سيحمله إلى الله.

ولأن الوهم يعمل من الداخل، كانت للنفس فيه يد كبرى. وحين تغلب النفس أمّاريتها، تميل إلى الصورة التي تحفظ هواها أكثر من الحقيقة التي تكشفه. تريد أن تبدو أقوى وأغنى وأكثر قبولاً وإعجاباً مما هي عليه؛ فتضخم ما يغذي صورتها، وتخفي ما يكشف ضعفها: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53].

ومن خارجك، هناك دائماً من يسقي هذا الوهم ويعيد إنتاجه. فالشيطان لا يملك أن يجبرك، لكنه يملك أن يزين. يزين الشهوة حتى تبدو ضرورة، ويزين الثروة حتى تبدو معيار القيمة، ويزين المظاهر حتى تتحول إلى مقياس للوجود

نفسه. ومع كل تنازل صغير، يتراكم على القلب شيء من الغبار لا يكاد صاحبه يشعر به: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

والرين لا ينشأ من خطيئة واحدة، بل من تراكم التفاصيل التي لم تطهر: غفلة بعد غفلة، وتنازل بعد تنازل، حتى يبهت وعي الإنسان ببطء دون أن ينتبه.

ومن أوائل خطوات التزكية إزالة الغبار عن مرآة الوعي، لا الاكتفاء بكثرة العمل. أن تقف مع نفسك بصدق، وتسأل: هل ما أسعى إليه يرفعني حقاً، أم يكتفي بتزييني؟ هل هو معنى، أم مجرد علامة؟ هل هو قيمة حقيقية، أم صورة تحتاج إلى جمهور يصدقها؟ لأن الصورة تسقط بزوال الضوء، أما المعنى فيبقى... حتى بعد أن تغادر الدنيا كلها.

الحاجب الثاني: حين تؤدي العبادة دون أن تعاش

ولفهم هذا الحاجب، ابدأ من التمييز بين ثلاثة معانٍ: الافتقار الوجودي حقيقة عامة لكل مخلوق؛ والعبودية هي الوجهة الواعية المختارة، بأن يكون الله رب الإنسان ومرجعه الأعلى وغاية سعيه؛ والعبادة هي التجسيد القصدي والعملية لهذه العبودية في الشعائر والطاعات والأعمال المشروعة المتوجه بها إلى الله.

ليست المشكلة أن العبادة صورة ظاهرة؛ فالصورة جزء من الامثال، ولا يستغني الباطن عنها. المشكلة أن تؤدي الصورة منفصلة عن المقصد الذي شرعت له، فلا يُطلب حضور القلب، ولا يُراجع أثرها في السلوك. والعبادة أولاً حق لله وتجسيد للعبودية، ومن حكمها وآثارها أنها تزكي النفس وتعيد ترتيبها.

حين تقف للصلاة، لا تؤدي تمريناً نفسياً، بل تقف عبداً بين يدي ربك. ومع ذلك، فإن هذا الوقوف المتكرر يدخل الإنسان كله في العبودية: جسده بالقيام والركوع، وقلبه بالنية والخشوع، وعقله بالفهم والتدبر، وروحه بالتوجه إلى الله. فإذا ضعف حضور بعض هذه الجهات، لم تصبح العبادة باطلة المعنى، لكنها تحتاج إلى مجاهدة حتى يتسبب نصيب النفس من ثمرتها.

وحين تصوم، لا يكون المقصود جوع البدن وحده، بل أن نتعلم النفس أن القدرة لا تساوي الإذن، وأن الرغبة يمكن أن تُقاد. وحين تزكي، لا يخرج المال من اليد فحسب، بل يُراجع القلب موقع المال منه. وحين تذكر الله، لا تردد لفظاً فقط، بل تعيد وجهتك وسط الانشغال.

العبادة إذن ليست جسداً والتزكية روحاً تضاف إليه من الخارج. العبادة تحمل التزكية في بنيتها ومقاصدها، وحضور القلب والعمل الصادق يفتحان للنفس باب الانتفاع بها. فالصورة الشرعية تحمل المعنى، والمعنى يحيي الصورة؛ ولا يلغى أحدهما باسم الآخر.

وهنا يظهر اتصال العبادة بمشروعك الأول. أنت لا تؤديها في هامش الحياة، بل تتكرر في يومك حتى تسهم في تشكيلك: الصلاة تعيد المركز، والصوم يدرّب الإرادة، والزكاة تحرر القلب، والذكر يجدد الوجهة. لكنها تبقى عبودية لله قبل أن تكون أثراً فيك، وفضل أثرها لا يحولها إلى تقنية لتطوير الذات.

وتأمل كيف يجمع القرآن هذه المعاني في وصف الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۚ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: 19-23]. ثم يذكر الحق المعلوم في المال، والتصديق بيوم الدين، وحفظ الفروج، ورعاية الأمانة

والعهد، والقيام بالشهادة، والمحافظة على الصلاة. فالاستثناء لا يقف عند هيئة الصلاة وحدها؛ إنه وصف لعبادة تدخل في المال والعلاقة والوفاء بالحقوق.

ولا يعني ذلك أن المصلين خلقوا بلا خوف أو حاجة؛ ففي صفاتهم نفسها الإشفاق من عذاب ربهم [المعارج: 27]. يبين «الميزان» و«الأمثل» أن أصل طلب الخير قوة قابلة لحسن التوجيه وسوئه. وبالمداومة على العبادة والعمل الصادق تترى النفس على ألا يستبد بها الجزع والمنع. وفي قراءة هذا الكتاب تشارك تلك الممارسة في تكون الشاكلة؛ لا لأن التكرار وحده يضمن الفضيلة، بل لأنه يجدد الاستجابة لله في القول والعمل.¹

والزكاة أيضاً ليست مجرد نقل للمال من يد إلى أخرى، بل عملية تحرير داخلي. قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

تأمل التعبير: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾. فالمقصود ليس سد حاجة الفقير فقط، مع عظمة هذا المقصد، بل تطهير المعطي نفسه أيضاً؛ تطهير نفسه من التعلق، ومن وهم الامتلاك، ومن خوف الفقد. فالزكاة لا تخرج المال وحده، بل تخرج شيئاً من عبودية القلب للمال. وكل تعلق يسقط، يفتح في القلب موضع جديد للنور.

أما الذكر، فلم يُشرع ليكون تردداً لفظياً فحسب، بل ليجدد حالة الحضور الداخلي. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]. والطمأنينة

¹ آيات المعارج والمداومة: الطباطبائي، «الميزان»، ج 20، تفسير المعارج: 19-35، ومكارم الشيرازي وآخرون، «الأمثل»، تفسير الآيات نفسها. موضع الاستناد خبرية أصل القوى وحاجتها إلى التهذيب، واستثناء المصلين بأوصافهم مجتمعة، وأثر المداومة. أما تحليل هذا الأثر بوصفه مشاركة في تكون الشاكلة فصياغة للكتاب، لا نقل حرفي عن الآيات ولا وصف لآلية نفسية حتمية.

هنا لا تنبع من الكلمات وحدها، بل من حضور الله ومرجعيته في الوعي والقلب والنية. اللسان قد يفتح الباب، لكن القلب هو الذي ينبغي أن يدخل.

لهذا لا يصح أن تُعامل العبادات كجسور مؤقتة تعبرها ثم تستغني عنها بعد بلوغ أثرها. هي صلة دائمة بالله، وتجديد للعهد، وموضع افتقار واستعانة. وقد تضعف ثمرة العبادة في النفس، لكن علاج ذلك ليس إسقاط صورتها، بل الجمع بين صحة الأداء ومجاهدة الباطن.

وفي الهدى، وهو من أعظم شعائر الحج الظاهرة، يقول الله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: 37]. لا تلغي الآية الصغيرة، بل تكشف أن صورتها الشرعية تحمل مقصداً باطنياً هو التقوى.

ولا يعني هذا أن كل من أدى صورة العبادة بلغ أثرها التكويني نفسه، ولا أننا نملك الحكم على قبول أعمال الناس. إنما يعني أن للعبادة ظاهراً شرعه الله وباطناً من الحضور والإخلاص، وأن الإنسان يحفظ الظاهر ويطلب حياة الباطن، من غير أن يجعل شعوره الشخصي ميزاناً لصحة العبادة.

وقد تمر على الإنسان أوقات يؤدي فيها الفريضة مع ضعف حضور، فلا يتركها ولا يحتقرها، بل يعود بها إلى الله ويطلب أن يحييها في قلبه. فالعبادة نفسها من أبواب المدد: تأتي بالفعل على قدر استطاعتك، وتستعين بالله أن يثبتك ويقبل منك ويجعل العمل سبباً في تركيتك.

وقد يكثر ظاهر العمل ويقل أثره، وقد يكون العمل قليلاً ثابتاً يفتح في النفس باباً. لا نقيس القبول بما نشعر به، لكننا نراجع الثمرة التي أمر بها الشرع: هل

تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟ هل تثمر الزكاة تطهيراً؟ هل يزداد في السلوك صدق ورحمة وأمانة؟

والخلاصة أن العبادة تجسيد للعبودية يسهم، بفضل الله وتكرار الامتثال، في تزكية الإنسان وتكوّنه. لا تختزل في أثر نفسي، ولا تنفصل عن الأثر التكويني. تحفظ صورتها الشرعية، ويطلب حضور معناها، وتظهر صدقيتها في عمل صالح ورحمة وعدل وأمانة. فإذا اجتمع الامتثال والإخلاص، دخل الإنسان كله في طريق التزكية.¹

ولماذا لم تملأ الفجوة مكتبة تطوير الذات؟

إذا غابت فريضة التزكية عن كثير من الخطاب الديني التقليدي، فإنها عادت للظهور — بصورة مختلفة — في ركن آخر من حياة الإنسان المعاصر: مكتبة تطوير الذات. تدخل إلى مكتبة، فتجد رفوفاً كاملة تتحدث عن بناء الشخصية، وتحقيق الإمكانات، وصناعة النسخة الأفضل من نفسك. وتفتح هاتفك، فتنهال عليك مقاطع لمدرّبين وملمهين يعدونك بالنجاح، والسلام الداخلي، والقوة الكامنة، والتحول الكبير.

وهنا يبرز سؤال طبيعي: أليست هذه، في جوهرها، محاولة لملء الفراغ الذي تركه غياب التزكية؟ أليست دعوة إلى تطوير النفس والارتقاء بها؟

الجواب، بصدق: نعم... ولا.

¹ الغزالي، إحياء علوم الدين، كتاب أسرار الصلاة؛ وروح الله الخميني، آداب الصلاة، في حضور القلب وأثر تكرار العبادة في ترسيخ حقيقة العبودية.

نعم، لأن في هذه المكتبة أشياء نافعة فعلاً: مهارات إدارة الوقت، وفنون التواصل، وتقنيات بناء العادات، وأساليب الانضباط، والقدرة على التعامل مع المشاعر والأهداف. وكثير من هذه الأدوات يمكن أن يكون مفيداً داخل مشروع التزكية إذا وضع في خريطته الصحيحة.

لكن «لا» تبقى أكبر؛ لأن الفجوة التي تركها غياب التزكية لم تكن فجوة مهارات، بل فجوة وجهة. وهذه الوجهة تغيب عن كثير من أطروحات هذا الحقل، وإن لم تغب عنها جميعاً.

تأمل عبارات تتكرر في بعض صور هذا الخطاب: «أنت تملك قوة لا حدود لها»، «الكون يستجيب لما تؤمن به»، «اكتشف عظمتك الداخلية»، «أنت مركز واقِعك». انتبه إلى موقع الذات فيها: تصبح البطل والمركز والغاية، ويغدو الكون تابعاً لرغبتها. وهنا يظهر الفرق الجوهرى بين التزكية القرآنية وبعض صور تطوير الذات الغربية الشائعة.

بعض نماذج تطوير الذات ينتهي عند الذات بوصفها الغاية الأخيرة، وبعضها يفتح أسئلة عن المعنى والخدمة. الفارق الأهم في هذا الكتاب ليس اسم الحقل، بل المرجعية والغاية: هل تُستخدم المهارة في العبودية والحق، أم تتحول قدرة الإنسان وصورته إلى معبود جديد؟

ولأن نقطة البداية مختلفة، يختلف الطريق كله، وتختلف الثمرة في النهاية.

ولأن بين الإطارين تشابهاً ظاهرياً — فكلاهما يتحدث عن «أن تصبح أفضل» — يختلط الأمر على كثير من القراء. فيأخذ الإنسان التقنيات، ويظن

أنه أخذ الفريضة نفسها. يحفظ خطوات بناء العادات، أو قوانين الانضباط، أو أساليب النجاح، ويتصور أن هذا هو الكدح الذي يتحدث عنه القرآن.

لكن السعي إلى «الأفضل» داخل خريطة تنتهي عند الذات، ينتهي غالباً إلى مزيد من تضخيم الذات. أما السعي إلى الأفضل داخل خريطة تنتهي عند الله، فينتهي إلى مزيد من إخلاص النفس له، وتحريرها مما سواه.

ولهذا يخرج كثير من الناس من هذه المكتبة وهم يحملون إنجازات أكثر... لكنهم لا يشعرون بالامتلاء. ينجح أحدهم في عمله، ثم يكتشف فراغاً لا يفهمه. يحقق هدفاً انتظره سنوات، ثم تذوب نشوته سريعاً. يبني صورة ناجحة عن نفسه، ثم ينهار داخلياً حين تهتز هذه الصورة.

وليس هذا عجزاً في التقنيات نفسها، بل إشارة إلى أن النفس خلقت لما هو أعمق من مجرد تطوير ذاتها. وكما رأيت في الفصل الأول، فأنت في رحم ثان، والرحم لا يكتمل فيه الجنين بتضخيم نفسه داخله، بل بالخروج منه إلى العالم الذي خلق له.

ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23]. واتخاذ الهوى إلهاً لا يعني بالضرورة أن يترك الإنسان الدين كله، بل قد يعني أن يجعل ذاته المرجع الأخير لكل ما يفعل، وأن يجعل تطويرها وتعظيمها الغاية العليا لحياته. وقد يكون صاحب هذا النمط على «علم» فعلاً؛ يقرأ، ويتعلم، ويمتلك أدوات ومهارات وتقنيات. لكن المشكلة ليست دائماً في نقص المعرفة، بل في الخريطة التي تضع الذات في موضع لا ينبغي أن يكون إلا لله. ولهذا كان الضلال هنا أخطر؛ لأنه ضلال يلبس ثوب الوعي، لا ضلال جهل ساذج.

وفي النهاية، يجد الإنسان نفسه متأرجحاً بين صفتين كلتاهما ناقصة: ضفة تقدم له طقساً بلا روح، فيفقد المعنى الداخلي للعبادة. وضفة تقدم له تطوراً بلا وجهة، فيفقد المعنى النهائي لوجوده. الأولى تعلمه أن يفعل دون أن يفهم لماذا، والثانية تعلمه أن يتقدم دون أن يعرف إلى أين.

أما الفريضة المغيبة، فهي ما يجمع بين الأمرين: حركة واعية بمعناها، ووجهة واضحة تعرف إلى أين تقود صاحبها.

أين أنت من نفسك؟

الكبح يحتاج إلى وجهة، والتزكية تحتاج إلى معرفة بالحال التي تبدأ منها. لكن القرآن لا يقدم لنا سلماً تقنياً جامداً من أربع «نفوس» مستقلة، بل يصف النفس الإنسانية الواحدة بأحوال وسمات تتغير بحسب ما يغلب عليها.

قد تكون أمارة بالسوء حين يستولي الهوى ويصير الأمر الداخلي أسرع من المراجعة. وقد تكون لوامة حين تستيقظ فيها القدرة على الاعتراض على خطئها. وتبلغ الطمأنينة حين تستقر وجهتها إلى الله فلا تستعبد التقلبات. أما الإلهام في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] فيدل على تعريفها بالطريقين وقابليتها للتمييز، ولا يلزم أن نجعله اسم مرحلة مستقلة تسمى «النفس الملهمة».

النفس الأمارة: حين يغلب الهوى

قال تعالى على لسان امرأة العزيز: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: 53]. الوصف لا يعني أن جوهر النفس شر، بل أن فيها قابلية

لأن تدفع صاحبها إلى العاجل حين تُترك بلا تزكية، وتعيد تسمية الرغبة ضرورةً والخوف حكمةً.

والنفس الأمارة ليست حكماً نهائياً على الإنسان. قد تظهر في باب وتضعف في باب آخر، ويستطيع الإنسان أن يراها ويخالفها ويطلب الرحمة التي استثنى الآية.

النفس اللوامة: يقظة المراجعة

قال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: 2]. اللوم الصادق ليس احتقاراً للذات، بل اعتراض النفس على انفصال فعلها عن الحق الذي عرفتته. يبدأ الإصلاح حين يُسمى الخطأ باسمه من غير يأس ولا تبرير.

وقد يتحول اللوم إلى جلدٍ عقيم إذا دار حول الإدانة ولم ينتهِ إلى توبة أو إصلاح. وظيفة النفس اللوامة أن تكشف المسار وتدفع إلى الرجوع، لا أن تجعل الإنسان أسيراً لصورة «أنا سيئ».

الإلهام والبصيرة: معرفة الطريقين

تحمل الفطرة أصلاً حضورياً إجمالياً للحق، وحباً أصيلاً للكمال، واتجاهاً إلى العبودية؛ وليست معرفة حصولية تفصيلية. ويأتي الوحي فيبين، والعقل فيميز، والتزكية فتكشف الحجب. ومع التزكية قد تصبح بعض الحقائق أسرع انكشافاً، لكن هذه البصيرة ليست عصمة للحدس ولا استغناءً عن الدليل. ما يرد إلى القلب يُعرض على الوحي والعقل وأثره في العمل.

قد يعرف الإنسان الطريق ولا يسلكه، وقد يسلك بعضه بتكلف قبل أن يميل إليه قلبه. لذلك لا نجعل وضوح الشعور معيار المرحلة؛ المعيار هو ما تبتناه النفس وتختاره وتكرره.

النفس المطمئنة: سكينة الوجهة

قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28]. الطمأنينة ليست غياب الحزن والخوف، بل مقام قلبي تكويني متدرج ينشأ من رسوخ معرفة الله وذكره والعبودية له واستقرار مرجعية النفس إليه. وهي ثمرة أصيلة ومظهر حقيقي من مظاهر القرب، من غير أن تكون مقياساً ظاهرياً لترتيب الناس؛ وقد تبقى التقلبات حاضرة من غير أن تقتلع النفس من عبوديتها.

وقد جسد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام معنى الاكتفاء حين دعا أصحابه إلى إعانتته بالورع والاجتهاد والعفة والسداد، لا إلى محاكاة صورته المعيشية حرفياً. فالغنى الأعمق غنى النفس بالله، مع أداء الحقوق ورعاية البدن.¹

وهذه الأوصاف ليست جزراً يغادر الإنسان إحداها إلى الأبد. قد يطمئن في باب ويظل في باب آخر على طريق المجاهدة، وقد توقظه اللوامة بعد غفلة. المقصود أن يتجه المسار العام إلى رسوخ العبودية، وأن يصير الرجوع إلى الحق أسرع وأصدق.

¹ نهج البلاغة، الكتاب 45، من كتاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى عثمان بن حنيف: «أعينوني بورع واجتهاد وعفة وسداد». استعمل المعنى في المتن لبيان أن الاقتداء لا يساوي محاكاة الصورة المعيشية حرفياً.

مشروعك الأول... وما عداه فرع عنه

يبقى بعد هذا كله سؤال عملي لا مفر منه: إذا كانت التزكية هي جوهر رحلتك، فأين تقع داخل يومك المزدحم أصلاً؟ كيف تمارسها وسط العمل، والأسرة، والالتزامات، والمواعيد، والتعب، والمسؤوليات التي لا تكاد تترك في يومك فراغاً؟ وهنا يقع الخطأ الشائع.

فكثير من الناس يتعاملون مع التزكية وكأنها مهمة إضافية ينبغي أن تزاحم بقية المهام داخل الجدول؛ ساعة جديدة تضاف إلى يوم مرهق أصلاً. لكن التزكية لم تنزل لتحشر في جدولك، بل لتعيد ترتيب الجدول كله.

اقرأ يومك بهدوء. أنت تعمل من أجل رزقك، وتبني أسرتك، وتفكر في مستقبلك، وترعى صحتك، وتصل أهلك وأصدقاءك، وتحاول أن تدير حياتك بأفضل ما تستطيع. هذه هي مشاريع حياتك اليومية، وكل واحد منها يطلب وقتاً وجهداً، وكل واحد منها له مكانه الطبيعي في حياتك.

لكن مشروعاً واحداً يبقى — عند أكثر الناس — غائباً وسط هذا الازدحام: تكون النفس التي ستلقى الله بها.

تأمل السؤال بصدق: أين يقع هذا المشروع في وعيك؟ هل تحصره في دقائق متفرقة ثم تعيش بقية اليوم بلا صلة به؟ تلك الدقائق نافعة، لكنها لا تكفي لبناء مسار تزكية إذا بقي العمل والعلاقة والمال خارج الوجهة.

فتكون النفس ليس نشاطاً تمارسه ساعة ثم تغلقه، بل إطار يمنح المعنى لبقية الساعات كلها. وحين يتغير هذا الفهم، يتغير السؤال نفسه. لا يعود السؤال: «متى أركزي نفسي؟»، بل: «كيف أجعل ما أفعله أصلاً جزءاً من تركيبي؟».

وهنا يأتي الجواب القرآني بدقة مدهشة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]. تأمل كلمة: ﴿فِيمَا﴾^ط.

لم يقل الله: اترك ما آتاك واطلب الآخرة في مكان آخر. ولم يقل: خذ الدنيا واترك الآخرة لأهل العبادة. بل قال: ابتغ الآخرة فيما آتاك. أي من داخل رزقك، ومن داخل عملك، ومن داخل أسرتك، ومن داخل صحتك، ومن داخل تفاصيل حياتك نفسها.

فالنية تمنح الفعل وجهته، لكنها لا تجعل كل صورة من الفعل صحيحة. لا تكفي نية حسنة لتصحيح ظلم أو تضييع واجب، كما لا يكفي ظاهر صحيح إذا كان الباعث رياءً أو استكباراً. يصدق العمل حين يستقيم القصد والصورة معاً، ويترجم كل منهما الآخر.

تأمل موظفين يؤديان المهمة نفسها. الأول لا يرى فيها إلا راتباً وصورةً عند المدير، والثاني يطلب رزقاً حلالاً، ويحفظ حق الناس، ويتقن الأمانة التي حُمِّلها. تشابه الحركة في ظاهرها، لكن ما تبنيه في كل نفس مختلف. ومع ذلك، لا تجعل النية الحسنة فعلاً فاسداً صواباً، ولا تسقط حقاً، ولا تغني عن الإتيان؛ إنها تمنح العمل الصحيح وجهته وروحه.

العمل الخارجي واحد، لكن الخريطتين مختلفتان تماماً. الأول تمضي ساعاته في جمع رصيد للدنيا وحدها. والثاني تمضي ساعاته في جمع الرصدين معاً. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134].

تأمل دقة الآية. ثواب الدنيا موجود عند الله، يعطيه لمن أَرَادَهُ. لكن الله يملك أيضاً أن يجمع للإنسان بين الدنيا والآخرة معاً. والفارق الحقيقي ليس في حجم السعي، بل في ما يطلبه الإنسان من هذا السعي، وفي الوجهة التي يضع فيها قلبه.

ولهذا ختمت الآية بـ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ تذكيراً بأن النية لا تضع، وإن خفيت عن الناس، بل أحياناً عن صاحبها نفسه.

ومن هنا يتضح ترتيب الحياة الحقيقي. المركز ليس مهنتك ولا أسرتك ولا نفسك بوصفها غاية مستقلة؛ المركز هو العبودية لله، والنفس أمانة تتزكى داخلها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: 9-10].

وحين تستقر العبودية في مركز وعيك، تأخذ بقية الأشياء مواضعها: تصبح مهنتك ميدان أمانة، والأسرة موضع رحمة ومسؤولية، والمال وسيلة لا هوية، والراحة حقاً واستعداداً لا هروباً دائماً.

وعندها لا تعود التزكية نشاطاً منعزلاً عن الحياة، بل طريقة في أداء ما عليك. وتبقى لها أعمال مخصوصة من عبادة ومحاسبة وطلب علم، لكنها تمتد في أثرها إلى بقية اليوم بدل أن تُحصَر في زاوية منه.

والتزكية ليست حرباً على النفس، ولا مشروعاً لكسرها. هي مسار تطهير النفس من الحجب والردائل، وتنمية قواها وكلماتها، وإعادة توجيهها نحو الحق والعبودية، بهداية الله ومدده. ولهذا تأخذ بيد النفس إلى اكتمالها الممكن: تكشف ما يضلّلها، وتداوي ما جرحها، وتقاوم ما يستعبدّها، وتني فيها ما يقربها من الله ويجعلها أصدق وأرحم وأقوى في الحق.

ماذا يحدث في داخلك حين تسلك؟

قد يبدو لك، بعد كل ما مر في هذا الفصل، أن الطريق طويل وثقيل. تحدثنا عن الكدح، والتزكية، والحواجز، والوجهة، وخريطة النفس، وإعادة ترتيب الحياة من الداخل. وقد يخطر لك، وأنت تقرأ: ما الذي يجنيه الإنسان من كل هذا السعي؟ ماذا يحدث فعلاً حين يبدأ في هذا الطريق؟

والجواب أن أول ما يتغير لا يكون في الخارج، بل في الداخل. لا يحدث انقلاب مفاجئ في العالم من حولك، ولا تنشق الحياة فجأة عن واقع مثالي. الناس هم الناس، والعمل هو العمل، والضغط لا تختفي، والخسارات لا تنعدم. لكن شيئاً آخر يبدأ بالتشكل بهدوء في أعماقك، ويتراكم بصمت حتى يصبح مع الوقت طريقة جديدة في رؤية الحياة كلها.

تأمل ما قد يحدث حين تفهم أن عمالك ليس مجرد وسيلة للرزق، بل ميدان أمانة. قد لا تتغير المهام، لكن يتغير معيارك: تؤدي الحق، وتتعلم، وتضع حدوداً للظلم، ولا تجعل رضا الناس وحده ميزاناً لقيمتك. وقد يبقى الضغط، المعنى لا يلغيه، لكنه يمنع أن يكون بلا وجهة.

لا لأنك صرت إنساناً خارقاً، بل لأن مركزك الداخلي بدأ يتحرك من الدنيا إلى الله. لم يعد تعلقك بالنتائج يستهلكك كما كان؛ فقد بدأت ترى أنك تعمل وتبذل السبب، وأن النتائج لا تستقل عن تدبير الله.

وحين تفهم أن أسرتك ليست مساحة للراحة أو الواجب فقط، بل ميداناً للرحمة والعدل والصبر، تتسع خياراتك. لا تتحول كل إساءة إلى «فرصة

جميلة»، ولا تُقبل الأذية باسم التزكية؛ لكنك تسأل عن رد يوقف الضرر من غير أن يرسخ فيك قسوةً مماثلة.

وكذلك المال. حين تفهم أنه أمانة لا هوية، يخف خوفك منه وعليه. لا لأنك كرهت المال أو تخلّيت عن قيمته، بل لأنك أعدته إلى مكانه الصحيح. لم يعد سيّداً يدير قلقك، بل أداة في يدك تحسن استخدامها ثم ترد أمرها إلى الله.

وكل هذه التحولات الصغيرة يجمعها استقرار المرجعية والوجهة إلى الله. وهذه طمأنينة متدرجة قد تجتمع مع الضغط والألم، وقد يحتاج الإنسان معها إلى علاج وأسباب وصحة. ولا يعني هذا الاستقرار اختفاء الخسائر أو حياة بلا اضطراب، بل يعني أن مركزك لم يعد معلقاً بما يتغير بسرعة؛ صار في مكان أعمق من تقلبات السوق، وأثبت من تقلبات الناس والظروف.

وهذا هو المعنى الذي يشير إليه القرآن حين يقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

لا تعد الآية بانتصار دنيوي دائم أو شعور هادئ في كل لحظة. إنها تضع أصل الطمأنينة في الذكر والاتصال بالله، وقد يحتاج القلب مع ذلك إلى علاج ووقت وصحة حتى يستعيد قدرته على السكون.

وقد يجتمع الألم والطمأنينة، كما قد يضطرب المؤمن ويطلب من يعينه. الطمأنينة ليست واجهة يجب تمثيلها، بل ثمرة تنمو حين لا تجعل التقلبات سبباً لقطع الصلة بالله أو ترك ما عليك.

لكن هذه ليست نهاية الرحلة، بل عتبتها الأولى. بداية تحول أطول، سنقترب من أدواته وأبعاده في الفصول القادمة. وما ينبغي أن يستقر في وعيك الآن،

قبل أن تغادر هذا الفصل، أن التزكية ليست فكرة مثالية تقال، بل طريق ينتج أثره فعلاً. كل خطوة فيه تترك شيئاً في داخلك، وكل حركة صادقة تعيد تشكيل النفس ببطء، حتى قبل أن تصل إلى ثمرتها الكبرى في الآخرة.

في الختام

بدأنا هذا الفصل بسؤال تركه الفصل الأول مفتوحاً: إذا عرفت الحقيقة... فماذا تبدأ؟

والآن، بعد هذا الطريق، نتضح الإجابة. فالتزكية ليست بنداً إضافياً في قائمة حياتك، بل الإطار الذي يعيد ترتيب القائمة كلها. وما يسميه القرآن «تزكية» ليس حركة تضاف إلى حياتك، بل مسار يعيد توجيهها من الداخل.

ورأينا كيف غابت هذه الفريضة خلف حاجبين: حاجب داخلي يصنع الوهم داخل النفس، وحاجب خارجي يجعل الإنسان يؤدي العبادة دون أن يدخل معناها. ورأينا أيضاً لماذا لم تستطع مكتبة تطوير الذات أن تسد هذه الفجوة، رغم ما فيها من أدوات نافعة؛ لأن خريطتها، في الغالب، تنتهي عند الذات، بينما تنطلق خريطة التزكية من الذات لتصل إلى الله.

ثم رأينا أوصاف النفس في القرآن: أمانة حين يغلب الهوى، ولوامة حين تستيقظ المراجعة، ومطمئنة حين تستقر الوجهة؛ ورأينا أن الإلهام يدل على معرفة الطريقتين وقابلية التمييز، لا على سلم اصطلاحي جامد.

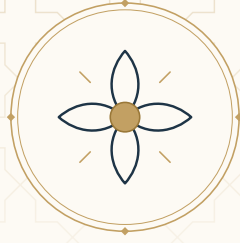
وحين يستقر هذا المركز في وعي الإنسان، يبدأ كل شيء آخر بالانتظام حوله. يأخذ العمل معناه، والعلاقات معناها، والمال مكانه، والزمن قيمته. وتبدأ ثمرة

الطريق بالظهور في الدنيا قبل الآخرة: طمأنينة تنبت في الصدر بهدوء، وتعطي للحياة شكلاً جديداً حتى قبل أن تتغير ظروفها. وهكذا نكون قد أعدنا هذه الفريضة إلى مكانها الطبيعي في خريطتك.

ويبقى السؤال الذي يفتح الباب لما بعده: إذا كانت النفس أمانتك الأولى داخل العبودية، فما الجهات التي يظهر فيها فعلها؟ وكيف تتداخل الروح والقلب والعقل والجسد في إنسان واحد؟ هذه هي بوابة الفصل القادم: أبعادك الأربعة.

وقف تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، قف عند سؤاله الأخطر: إن كانت نفسك هي مشروعك الأول، وكل ما عداها فرع عنه، فأين يقع هذا المشروع في ترتيب يومك الفعلي — لا في ترتيبك المثالي له؟ وأي مشاريعك التي تنفق فيها ساعاتك يخدم النفس التي ستلقى بها ربك، وأياها يجري بمعزل عنها كأنك لن تسأل عنه؟



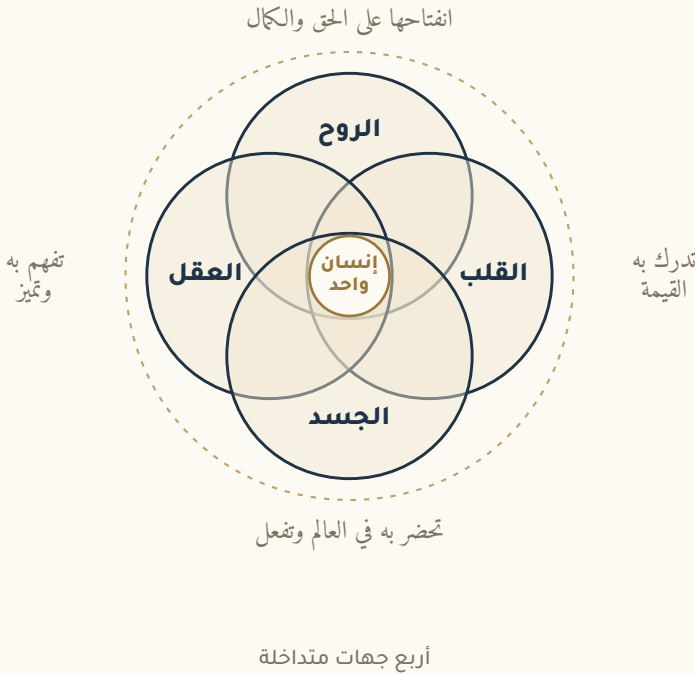
الفصل الثالث

أبعادك الأربعة

ختمنا الفصل السابق على معنى يحكم هذه الرحلة كلها: نفسك مشروعك الأول. لكن ما النفس التي تتزكى وتغير؟ وهل الجسد والقلب والعقل والروح أربعة أشياء موضوعة بعضها إلى جوار بعض؟

أنت لست أربعة كائنات مجتمعة. أنت إنسان واحد، لكن وحدتك غنية، ويمكن أن نقرأ حضور نفسك وعملها في هذه النشأة من أربع جهات متداخلة: جسد تحضر به في العالم وتفعل؛ وقلب تدرك به القيمة، وتقبل وتحب وتتوي وتجه؛ وعقل تفهم به وتميز وتستدل وتحكم وتراجع؛ وروح هي نفسك من جهة مرتبتها الروحية وانفتاحها على الحق والكمال وغاية العبودية. ونستعمل لفظ «الروح» هنا بهذا المعنى الوظيفي داخل هذه الخريطة، لا تعريفاً جامعاً لكل استعمالاته في النصوص. وهذه الجهات متكافئة بوصفها منافذ تحليل، لكنها ليست أجزاءً أو ذواتٍ أو جواهر متجاورة، ولا متماثلة في نوعها الوجودي.

هذه الخريطة أداة للفهم، لا تقسيمًا نهائياً للوجود الإنساني. تساعدنا على رؤية جهات مختلفة من فعل النفس، ثم تعيدها إلى وحدتها. فإذا تحولت إلى أربعة صناديق متجاورة، حجب الإنسان الذي أريد لها أن توضحه.



النفس: الذات الواحدة في طور التكوّن

النفس ليست بُعداً خامساً يضاف إلى هذه الجهات، بل هي الذات الإنسانية الواحدة في طور تكونها. هي التي تعرف وتريد وتختار وتعمل، وفيها تتفاعل الدوافع والنيات والعادات والقرارات، ومنها يبدأ الإصلاح أو الانحراف.

وحين يصفها القرآن بالأمانة أو اللوامة أو المطمئنة، لا نتحدث عن نفوس متعددة داخل الإنسان، بل عن أحوال للنفس الواحدة بحسب ما يغلب عليها وما تتجه إليه. فهي ليست شراً في أصلها، ولا مرادفة للهوى؛ إنها قابلة لأن تزكو أو تنحرف، وأن تكتسب مع الزمن هيئة تصير بها إلى شاكلة مستقرة.

وهذا هو المعنى الذي يحفظ مسؤوليتك واستمرار هويتك معاً. أنت الشخص نفسه الذي يجهل ثم يتعلم، ويضعف ثم يقوى، ويخطئ ثم يتوب. لا تُستبدل بك ذات أخرى عند كل تحول؛ النفس الواحدة هي التي نغير، وتحمل تاريخ اختياراتها، وتستطيع أن تعيد توجيه مسارها.

الروح والفطرة: المرتبة الروحية ونحو الخلقة

لا ينحصر أثر الروح في لحظات العبادة الصريحة. يظهر أيضاً في ذلك القلق الذي لا يسكته الإنجاز، وفي انجذابك إلى جمال لا يملك نفعاً مباشراً، وفي سؤالك عن المعنى حين تكتمل الأسباب الظاهرة ولا يكتمل الرضا. لا نجعل كل قلق دليلاً روحياً، لكننا لا نختزل الإنسان في دائرة المنفعة كذلك.

الروح هي النفس نفسها من جهة مرتبتها الروحية وعدم اختزال حقيقتها في المادة، وانفتاحها على الحق والكمال المطلق وغاية العبودية. وحين نصفها بالمرتبة العليا لا نقصد مكاناً فوق بقية الجهات، ولا سلطة تلغي العقل أو البدن، بل جهةً في الحقيقة الإنسانية الواحدة.

الفطرة من هذه الجهة أصل حضوري إجمالي للحق، وحب أصيل للكمال، واتجاه إلى العبودية. وليس هذا الأصل معرفة حصولية تفصيلية، بل أساساً يحتاج ظهوره وتعيين متعلقه إلى الوحي والعقل والتزكية. وقد تُحجب الفطرة.

والحجب ما يضعف ظهور مقتضاها أو يشوش قراءة آثارها، من غير أن يقتلع أصلها؛ فيعيد الهوى والعادة والخوف والتنشئة والتوهم تسمية الأشياء، حتى يطلب الإنسان الخير في صورة تضره، أو يهرب من الحق لأنه يهدد صورة بناها عن نفسه؛ فيصير كمن ينظر في مرآة علاها الغبار: يرى ظل نفسه، لا نفسه.

لهذا جاءت التزكية لا لتخلق فيك فطرة جديدة، بل لتمسح الغبار عن المرآة الأولى: تكشف مقتضى الفطرة وتبني الكمالات الموافقة لها. وجاء الوحي لبيّن، والعقل ليميز، والقلب ليقبل، والذكر ليحفظ الحضور؛ فلا تستغني الفطرة عن الوحي والعقل، ولا يصح أن تتحول إلى اسم لكل ميل داخلي.

وقد يشعر القارئ بآية كأنها تعرفه قبل أن يعرفها. هذه خبرة إنسانية معتبرة، لكننا نصفها بتواضع: استجابة الفطرة لمعنى وافق أصلها، لا ذاكرة تفصيلية نملك أن نبني عليها حكماً مستقلاً عن النص والعقل.

هذه المرتبة الروحية من حقيقتك لا تختزل في وظائف البدن ولا في الحساب الذهني. يشير إليها القرآن باسم الروح، ويقف باللغة عند حدها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]. لا تمنحنا الآية تشريحاً للروح، بل تعلمنا التواضع أمام حقيقتها.

وتوقف عند الإضافة في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]؛ فهي لا تعني أن في الإنسان جزءاً من ذات الله: الإضافة إضافة تشريف وملك لروح مخلوقة. لكنها تفتح أمام الإنسان معنى رقيقاً: أن حقيقته لا تستنفدها المادة، وأن له قابلية للمعرفة والعبودية والقرب.

ويضع القرآن هذا الأصل في صلته بالدين والوجهة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30]. فالآية تدل على أصل خلقي تتصل به الاستقامة على الدين، من غير أن تجعل الفطرة معرفة تفصيلية مكتملة أو دافعاً قاهراً.

والفطرة نحو الخلقة التي خلقت عليها الحقيقة الإنسانية والروح الإنسانية. وقد عبّر صدر المتألهين عن «فطرة الروح» و«فطرة الروح النورية»، وشرح الإمام الخميني الفطرة بوصفها حالاً وكيفية داخلية في أصل الخلقة، لا معرفة مكتسبة من الخارج.^{2.1}

الفطرة نحو مخصوص من خلقة الإنسان، يتضمن أصلاً حضورياً إجمالياً للحق، وحباً أصيلاً للكمال المطلق، واتجهاً إلى العبودية. وليست معرفة حصولية تفصيلية أو وعياً دينياً مكتملاً؛ لذلك يحتاج ظهورها وتعيين متعلقها إلى الوحي والعقل والتزكية. وتظهر آثارها في الإنسان كله: يميز العقل، ويقبل القلب، ويتجه الإنسان إلى الله، ويجسد ببدنه ما استجاب له؛ وتكشف التزكية مقتضاها وتتمّي الكمالات الموافقة لها.

ومن جهة أخرى، يكشف الميثاق أصل علاقتك بربك: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172، موضع الشاهد]. وفي قراءة هذا المشروع، تفهم الفطرة والميثاق حقيقة توحيدية واحدة من اعتبارين:

1 صدر المتألهين الشيرازي، «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة»، ج 9، ص 236، في «فطرة الروح» و«فطرة الروح النورية». استعمل الموضع لإثبات أصل الفطرة وانجذابها إلى الكمال، لا لإسناد صياغة المشروع الحديثة بحروفها إلى صدر المتألهين.

2 روح الله الخميني، «الأربعون حديثاً»، شرح الحديث الحادي عشر، في الفطرة بوصفها كيفية أصلية داخلية في الخلقة، وحب الكمال المطلق وطلبه. وتعبير «الأصل الحضوري الإجمالي» صياغة تحليلية للمشروع تميز هذا الأصل من المعرفة الحصولية التفصيلية.

الفطرة من جهة تأصلها في الخلقة، والميثاق من جهة الإشهاد والإقرار والحجة. وهذا ما نعبّر عنه بـ«ميثاق الفطرة»، مستأنسين بقول أمير المؤمنين عليه السلام في بعثة الأنبياء: «ليستأدوهم ميثاق فطرته». لا نجعل اللفظين مترادفين، ولا نحسم بهذا الربط كيفية الإشهاد المختلف في تفسيرها.¹

ويظهر المقتضى العملي في عهد الله إلى بني آدم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس: 60-61]. في هذا الجمع نقرأ العهد مطالبةً بالوفاء بمقتضى الربوبية، وعبادة الله طريق هذا الوفاء. فالرجوع ليس إلى كمال جاهز دفنته التجربة فيك؛ إنه رجوع إلى مقتضى فطرتك وعبوديتك، يتحقق بما تعرف وتختار وتعمل. وتبقى مسؤوليتك بحسب ما بلغك من بيان وما كان في وسعك، لا على اقتراض علم تفصيلي متساوٍ عند الجميع.

ولا تناقض الفطرة حاجاتك وقواك الطبيعية. حاجتك إلى الأمن والانتماء، وخوفك ورغبتك وغضبك، ليست شرّاً في أصلها. والانحراف المقصود هنا أن تستبد قوة أو حاجة بالتوجيه، أو تتجاوز موضعها، أو تزاحم الحق. لذلك تحتاج إلى تزكية تهذب القوى وترتبها، لا إلى حرب على بدنك أو محو لمشاعرك.

ولا تعني الفطرة معرفة تفصيلية مكتملة، ولا تجعل كل إحساس داخلي حجة معصومة. قد يختلط الهوى بالفطرة، وقد تنتحل العادة اسم الحدس، وقد يبرر

¹ ميثاق الفطرة والعهد: نهج البلاغة، الخطبة الأولى، مقطع بعثة الأنبياء واستئداء ميثاق الفطرة؛ والكليني، «الكافي»، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب «فطرة الخلق على التوحيد»، ح2، في وصل الفطرة بأخذ الميثاق على التوحيد. وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج8، تفسير الأعراف: 172-174؛ وج17، تفسير يس: 60-62. يستأنس بهذه المواضع في الجمع بين الفطرة والميثاق ومقتضى العهد، مع حفظ اختلاف السياقات، وعدم ادعاء ترادف الألفاظ أو حسم كيفية الإشهاد. وظيفتها هنا دعم الدلالة، ولا تتضمن هذه الحالة تحقيقاً سندياً جديداً.

الإنسان خوفه بلغة الحكمة. لذلك تحتاج الفطرة إلى نور الوحي، وتمييز العقل، وتزكية القلب، وأثار العمل التي تكشف صدق الدعوى.

القلب: النفس من جهة الإدراك الباطني والقيمي والنية والوجهة

ولاحظ التسمية نفسها: قد سمي القلب قلباً في بعض الشروح لكثرة تقلبه. وهو يتقلب لأن النفس تتعرض في كل يوم لصور وأخبار وعلاقات وذكريات. فلا يكفي أن تعرف وجهتك مرة؛ تحتاج إلى ما يجددها حين تسحبك التفاصيل إلى مراكز صغيرة: مدح، أو خوف، أو مال، أو صورة عند الناس.

والقلب محل النية لأن العمل لا يحمل القيمة نفسها مع اختلاف باعته. قد يعطي اثنان المال نفسه؛ أحدهما رحمة، والآخر طلباً للظهور. الصورة واحدة، لكن ما يتشكل في النفس مختلف. ومع ذلك لا تكفي النية لتصحيح وسيلة ظالمة؛ القلب الصادق يقبل أن يضبطه الحق.

وفي القلب تتكوّن المحبة والبغض على مهل. ما تتعرض له مرة قد يمر، وما تكرره وتستحسنه يكتسب مكاناً. لهذا ليست صيانة القلب حراسةً من العالم كله، بل وعياً بما تسمح له أن يصبح مألوفاً، وما ترفض أن يتحول من صورة عابرة إلى ميل مستقر.

وقد يلتبس صفاء القلب براحة المزاج. القلب قد يكون صادقاً وهو متألم، وقد يكون مخدوعاً وهو مطمئن إلى عادة. ميزان الصفاء ليس اللذة وحدها، بل قدرة النفس على استقبال الحق ولو خالف رغبتها، وعلى الرجوع إذا ظهر لها خطؤها.

القلب في هذا الكتاب ليس العضلة التي تضخ الدم، ولا مجموع المشاعر، ولا ذاتاً مستقلة عن النفس. هو النفس الإنسانية من جهة إدراكها الباطني والقيمي، وقبولها ورفضها، ومحبتها ونفورها، وإيمانها ونيتها ووجهتها وطمأنيتها. وهذا قريب من بيان العلامة الطباطبائي أن القلب الذي ينسب إليه القرآن الإدراك والشعور والإرادة هو النفس الإنسانية نفسها من هذه الجهة.¹

لهذا ينسب القرآن إلى القلب الفقه والقسوة والمرض والطمأنينة. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]. وتأمل موضع العمى في الآية: العين ترى الصورة، أما القلب فيتلقى قيمة ما يرى، ويتجه نحوه أو يعرض عنه؛ فالفقدان الأشد ليس فقدان البصر، بل فقدان البصيرة التي ترى المعنى.

والقلب لا يعصم صاحبه لمجرد أن شيئاً «شعر به». قد يصدق فيكشف موضعاً عميقاً، وقد يضطرب تحت أثر خوف أو تعلق أو جرح أو عادة. الصدق معه لا يعني طاعته في كل ما يريد؛ يعني الاعتراف بما يجري فيه، ثم عرضه على الحق، وتربيته حتى يلحق بما عرفه العقل واستبان في الوحي.

ومشاعرك ليست أعداءً ينبغي محوها، ولا أوامر ينبغي تنفيذها. إنها بيانات عن حال النفس: تكشف خوفاً أو شوقاً أو تعلقاً أو حاجة، ثم تنتظر منك فهماً وقراراً. قد يبقى الحزن مع الإيمان، ويبقى الخوف مع الشجاعة، لكنهما لا يلزمان أن يحكما الوجهة.

¹ محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 15، ص 317، في أن القلب القرآني المنسوب إليه الإدراك والشعور والإرادة هو النفس الإنسانية من هذه الجهة.

العقل: النفس من جهة الفهم والتمييز والحكم

العقل لا يعمل في فراغ. يدخل إلى كل مسألة ومعه لغة وتجارب وافتراضات سابقة. ولذلك يستطيع أن يكون أداة كشف، ويستطيع أن يتحول إلى محام بارع عن رغبة اتخذت قرارها قبل أن تبدأ المرافعة. المحاسبة العقلية تبدأ بسؤال: هل أبحث عن الحقيقة أم عن حجة لما أريد؟

ومن وظائفه أن يميز بين مستوى الحقيقة ومستوى التفسير. الحدث وقع، لكن تفسيرك له قد يكون واحداً من احتمالات. كلمة قيلت لك قد تكون إهانة، وقد تكون سوء تعبير، وقد تكون نقداً صحيحاً. العقل المتزن يؤخر الحكم، ويطلب القرينة، ولا يجعل الانفعال دليلاً نهائياً.

ويظهر كمال العقل حين يعرف حدوده. لا يضع كل غيب في خانة المستحيل لأنه لا يقيسه، ولا يقبل كل دعوى روحية لأنها تتجاوز القياس. يسأل عن المصدر والدليل والسياق، ويعرف أن الوحي يهديه إلى ما لا يستقل بإدراكه، من غير أن يعفيه من النظر.

بهذا يصبح العقل خادماً للعبودية لا أداة باردة. يخطط، ويتعلم، ويقارن، ويستشير، لكنه لا يجعل الكفاءة إلهاً ولا النجاح معياراً نهائياً. قيمة ذكائه في الوجهة التي يخدمها وما يتركه من عدل ونفع.

العقل هو النفس حين تفهم المعاني والعلاقات والعواقب، وتميز وتستدل وتحكم وتراجع، وتربط الوسائل بالغايات. لا يخلق الحق من ذاته، لكنه ليس مترجماً سلبياً للقلب كذلك. به يقرأ الإنسان الوحي والواقع، ويميز بين الدليل والظن، ويراجع دوافعه، ويخطط للعمل، ويتعلم من العاقبة.

ويحتاج العقل إلى الوحي حتى لا يجعل حدوده حدوداً للحقيقة، ويحتاج إلى قلب مزكى حتى لا يتحول ذكاؤه إلى حيلة تخدم الهوى. ويحتاج القلب إلى العقل حتى لا تسمى كل حرارة وجدانية يقيناً، ولا كل نفور بصيرة. ليست العلاقة قيادة أحادية تنزل من طبقة إلى أخرى، بل تفاعل مستمر داخل نفس واحدة.

وفي العقل تتكوّن خرائط للفهم: تصورات عن الله والنفس والناس والنجاح والخوف. هذه الخرائط إحدى طبقات الشاكلة، لكنها ليست الشاكلة كلها. فقد يعرف الإنسان فكرة صحيحة، ثم يبقى في نفسه ميل وعادة ووجهة تخالفها. وسنعود في فصل «حركة الجوهر» إلى الصورة الأوسع التي يصدر عنها العمل.

الجسد: حضورك المتجسد في العالم

للنوم والغذاء والحركة أثر في صفاء القرار لا يجوز تجاهله. قد يفسر الإنسان سرعة غضبه بأنها مشكلة إيمانية فقط، بينما يحمل بدنه إرهاقاً طويلاً. العناية بالبدن لا تحل كل أزمة في القلب، لكنها ترفع ضجيجاً قد يمنعك من سماع ما يجري فيه.

والبدن يحمل آثار الخبرة بطريقته: تتسارع دقات القلب عند خطر يشبه خطراً سابقاً، وتقلص العضلات قبل أن يصوغ العقل تفسيراً. لا يعني ذلك أن الإنسان أسير لجهازه العصبي، بل أن التزكية الحكيمة تراعي ما تعلمه البدن، وتعيد تدريبه بالصبر والأمان والعلاج.

ومن الجسد يخرج الأثر إلى العالم. الرحمة التي لا تتحول إلى يد تعين تظل ناقصة التعبير، والعدل الذي لا يغيّر قراراً يبقى فكرة، والاعتذار الذي لا ينطق به اللسان لا يصل إلى من ظلم. الجسد موضع ترجمة، لكنه يعلم الداخل أيضاً بما يكرر من فعل.

لهذا كان العمل الصالح جزءاً من بناء النفس لا مجرد نتيجة لها. قد يبدأ الإنسان بالفعل قبل أن يكتمل شعوره: يقوم إلى الصلاة وهو فاتر، أو يصل رحماً وهو متردد. وإذا صدق في الفعل وتكرر، عاد الأثر من الجسد إلى القلب والعقل، فصار التغيير دائرياً لا خطاً واحداً.

البدن ليس غلافاً مؤقتاً لا شأن له بحقيقة الإنسان، ولا آلة خارجية تحمل نفساً منفصلة عنها. هو مرتبة الإنسان الجسمانية ومجال حضوره المتجسد وتلقيه الحسي وفعله في هذه النشأة، وتؤثر النفس بأحواله وتؤثر فيه.

ولهذا كان البدن أمانة: جزءاً من وجودك الديني ومجال فعلك، أثمتك الله عليه؛ فيلزمك حفظه ورعايته وتنمية قدرته واستعماله في الحق، من غير تأليه له أو إهمال لحاجاته أو إضرار متعمد به. ويشمل حقه الغذاء والنوم والراحة والحركة والعلاج والترويح والاستمتاع المشروع في مواضعه. لا لأن راحته غاية الحياة، بل لأنه جزء من وحدة الشخص وأمانته ومجال فعله. إن أهملته أضعف عبادتك وعملك، وإن عبدته جعل الراحة واللذة مركزاً لما خلق ليكون طريقاً.

وتؤكد دراسات حديثة في الحس الداخلي والتجسد أن الإشارات الآتية من القلب والتنفس والأحشاء والجهاز العصبي تدخل في تكوين الانفعال والوعي

الجسدي واتخاذ القرار. هذا لا يثبت الروح الميتافيزيقية ولا ينفها، لكنه يذكّرنا بأن التجربة الإنسانية لا تقع في ذهن معزول عن البدن.¹

في الصلاة يقف الجسد ويقرأ العقل ويحضر القلب وتتجه الروح، لا لأن أربعة أشخاص أدوا عملاً واحداً، بل لأن الإنسان الواحد دخل العبادة من جهات وجوده كلها. وفي الغضب كذلك يتغير التنفس، ويضيق الانتباه، ويميل القلب، ويختار العقل تفسيراً، ثم يظهر الكل في فعل الجسد.

الانسجام: وحدة لا تماثل

قد يبدأ الإصلاح من أعلى الخريطة بمعنى يهديك، وقد يبدأ من أسفلها بعبادة بدنية صغيرة. إن نظمت نومك اتسع عقلك للمراجعة، وإن صحبت صادقاً استحيا قلبك من بعض أقنعته، وإن فهمت آية على وجه جديد تبدلت قراراتك. وحدة النفس تجعل كل باب قادراً على التأثير في البقية.

ولهذا لا نبحث عن «البعد المذنب» كلها اختل الإنسان. قد يكون الجسد متعباً، والقلب خائفاً، والعقل أسير تفسير واحد، والروح محجوبة بضجيج طويل. العلاج المتكامل يسأل عن الكل، ثم يبدأ من الموضع الذي يملك فيه الإنسان قدرة فعلية.

¹ Diego Candia-Rivera, Tahnée Engelen, Mariana Babo-Rebelo, and Paula C. Salamone.

“Interoception, Network Physiology and the Emergence of Bodily Self-Awareness.”

Neuroscience & Biobehavioral Reviews 165, 2024, 105864.

DOI: 10.1016/j.neubiorev.2024.105864; Mallory J. Feldman, Eliza Bliss-Moreau, and

Kristen A. Lindquist. “The Neurobiology of Interoception and Affect.” Trends in

Cognitive Sciences 28(7), 2024, pp. 643-661. DOI: 10.1016/j.tics.2024.01.009.

والانسجام لا يعني أن تنتهي المناقشة الداخلية. قد يعرف العقل واجباً ويشعر القلب بثقله، ثم تختار النفس القيام به. هذا التوتر ليس انقساماً مذموماً؛ إنه ميدان الإرادة. الانقسام يبدأ حين تثبى النفس وجهتين متناقضتين وتصر على تسمية كليهما حقاً.

حين نقول إن الأبعاد تنسجم، لا نقصد أن تختفي الفروق بينها، بل أن تتجه وظائفها إلى غاية واحدة. يفهم العقل الحق ويميزه، ويقبله القلب، وتتجه الروح إلى الله وغاية العبودية، ويجسده الإنسان ببدنه في القول والعمل. وقد يبدأ التصحيح من أي جهة: معنى يفهمه العقل، أو سجدة تلين القلب، أو صحة توظف الفطرة، أو انتظام في النوم يعيد للنفس قدرتها على التمييز.

وكلما ازدادت جهات النفس تصادفاً وانسجاماً تحت الحق والفطرة، اشتد تكامل النفس واجتماعها، وقلت فيها أسباب التشتت والتنازع الداخلي والمحجب المزاخمة؛ فتزداد طمأنينتها وثباتها واستقرارها، وتوسع قدرتها على تذوق خير وجودها والوجود من حولها. وهذا وجه من وجوه سعادتها، لا وعد بزوال كل حزن أو خوف أو ألم.

أما الاختلال فيظهر حين تتباعد الجهات: يعرف العقل ما لا يريده القلب، أو يعلن اللسان ما لا تتوهمه النفس، أو يستهلك الجسد فيما يهدم وجهة الروح. ليست المشكلة وجود توتر عابر؛ فالمجاهدة نفسها دليل حياة. المشكلة أن يتحول التناقض إلى حالة مقبولة، ثم إلى عادة، ثم إلى صورة راسخة.

القلب السليم هو صورة هذا الاجتماع حول الحق: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۚ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89]. وليس المقصود قلباً

بلا مشاعر إنسانية، بل نفساً لا تجعل الهوى رباً، ولا تعرف الحق ثم تتخذ نقيضه وجهة مستقرة.

وفي التعبير الصدراي يمكن وصف اجتماع الكمالات في النفس بازدياد بساطتها الوجودية؛ وهو وصف فلسفي تابع، بينما يبقى اجتماع النفس وانسجام جهاتها التعبير الأقرب في هذا الكتاب.¹

ميزان السعي وحدود المعطى

وحدة الإنسان لا تعني تماثل الناس. تختلف الأبدان صحةً وقوةً، وتختلف القدرات العقلية، وتفاوت الخبرات والبيئات والجراح وفرص التعلم. بعض ذلك معطى أول لم يختره الإنسان، وبعضه قابل للنمو، وبعضه نتيجة لاختيارات تكررت حتى رسخت.

ولهذا لا تقرأ رحلة إنسان بميزان رحلة آخر. لا يلام المرء على بداية لم يخترها كما يلام على ما عرفه ورضيه وغذاه داخل وسعه. وتوسع المسؤولية بحسب ما بلغه وفهمه، وقدرته الفعلية، وأدواته ووقته وبيئته وفرصه، لا بصورة واحدة مفروضة على الجميع.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿[النجم: 39-40]﴾. قف عند ما ثبتته الآية وما لا تثبته: ليس المعنى أن

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص17 وما بعدها، وفي مباحث النفس من ج8 وج9، في الحركة الجوهرية وصيرورة الملكات صوراً للنفس؛ وج9 في مباحث تجسم الأعمال والمعاد. وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج1، ص208، وج2، ص436. استفيد من الحركة الجوهرية بوصفها تفسيراً فلسفياً مسانداً، ومن تجسم الأعمال بوصفه أصلاً تراثياً لفكرة ظهور حقائق الأعمال بإظهار الله وحكمه، لا آلية مستقلة عنه.

النتيجة الدنيوية كلها في يدك، بل أن سعيك موضع مسؤوليتك، وأن الله يرى ما بذلت داخل معطاك وحدودك.

هنا يبرز دور الإرادة: ليست قوة تخلقك من عدم، بل موضع مشاركتك المسؤولة في تشكيل نفسك. تبدأ من معطيات لم تخترها، لكنك لا تبقى مجموعاً آلياً لها. بما تعرف وتختار وتكرر، تنمي قابلية، أو تضعفها، وتغذي هيئة، أو تقطع طريقها.

في الختام

أنت نفس واحدة تُقرأ من أربع جهات متداخلة: جسد حضورك المتجسد وفعلك، وقلب إدراكك الباطني والقيمي وبيتك ووجهتك، وعقل فهمك وتمييزك وحكمك، وروح هي نفسك من جهة حقيقتها الروحية وانفتاحها على الله والكمال. والفطرة أصل حضوري إجمالي للحق، وحب أصيل للكمال، واتجاه إلى العبودية؛ وليست معرفة تفصيلية مكتملة، وتظهر آثارها في النفس كلها حين تستضيء بالوحي والعقل والتزكية.

لا تصلح نفسك بإعلان حرب بين هذه الجهات، بل بإعادة كل وظيفة إلى موضعها ووصلها بوجهتها. ترعى الجسد من غير أن تعبده، وتسمع القلب من غير أن تؤله، وتستخدم العقل من غير أن تستغني به، وتستجيب للروح من غير أن تحول كل خاطر إلى كشف.

ويبقى السؤال الذي يفتح الفصل التالي: هذه النفس الواحدة لا تتكوّن في فراغ؛ إنها تعيش في عالم من الأسباب والقابليات والأضداد. فما معنى أن يكون العالم منظماً، وأن تكون أنت فاعلاً داخله من غير استقلال؟

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، انظر إلى جهاتك الأربع كما هي فيك اليوم، لا كما تتمناها: أيها استبد ببقيتها فصار يملّي عليك؟ أعقل يحلل كل شيء حتى أطفالاً قلبك، أم قلب تقوده الانفعالات بلا بصيرة، أم حاجات جسدية اتسعت حتى حجبت سائر الجهات، أم روح غطاها الغبار حتى كاد صوت الفطرة فيها يخفت؟ وأي جهة تنتظر منك أن تعيدها إلى موضعها قبل أن تغلق هذه الصفحة؟



الفصل الرابع

سنن الوجود

القسم الأول: تمهيد

تعيش كل يوم على ثقتك بسنن لا تحتاج إلى تسميتها: تضغط المفتاح فتنتظر الضوء، وتأخذ الدواء رجاء أثره، وتعتذر لأن للكلمة أثراً في العلاقة، وتعلم لأن التكرار يرفع الاستعداد ويوسع القدرة الفعلية. انتظام الأسباب هو الذي يجعل العمل ممكناً، ويمنح المسؤولية معناها.

هذا الانتظام لا يجعل العالم آلة مغلقة، ولا يجعل السبب مستقلاً عن الله. النار تحرق ضمن شروط، والدواء ينفع ضمن شروط، والقرار يترك أثراً ضمن شبكة من الناس والظروف. السبب حقيقي في مرتبته، لكنه محدود ومفتقر إلى من خلقه وأبقى أثره.

ومعرفة السنن لا تمنحك السيطرة على كل تفصيل. من السنن ما هو كوني عام، ومنها ما يتصل بفعل الإنسان والمجتمع، ومنها ما يذكره القرآن في مصائر

الأمم. نميز بينها، ونعمل بما ظهر من سبب، ونرد ما غاب إلى الله. فالسنن تزيد المسؤولية، ولا تلغي الغموض.

ختمنا الفصل السابق على أن الإنسان نفس واحدة ذات جهات متداخلة. لكنه لا يتكوّن داخل نفسه وحدها. يعيش في عالم من أجساد وأشخاص وأحداث وأسباب، بعضها يفتح له، وبعضها يقاومه، وبعضها لا يفهمه إلا بعد زمن.

ولذلك فالسؤال عن السنن عملي قبل أن يكون فلسفياً: كيف نتصرف إذا علمت أن للأفعال آثاراً، وأن للنتائج أسباباً، وأن قدرتك حقيقية لكنها محدودة، وأن ما لا تفهمه لا يصير عبثاً لمجرد أنه غاب عنك؟

يقرر القرآن أن الوجود مخلوق بقدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]. قف عند القيد في الآية: لم يقل «خلقناه» مجردة، بل ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾؛ فالخلق نفسه موزون مقدّر. ويقرر ثبات سنن عامة في حياة الأمم والأفراد: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [فاطر: 43]. لكن هذا لا يمنحنا مفتاحاً سحرياً نفسره به كل حادثة فردية، ولا يعني أن كل تفصيل نراه نستطيع رده إلى حكمة خاصة معلومة لنا.

السنة الإلهية نمط ثابت أو غالب أجراه الله في خلقه، ندرك بعضه بالوحي وبعضه بالملاحظة والخبرة. ومن احترام السنن أن نبث عن السبب، وتعلم من العاقبة، ولا نستبدل التخطيط بالتمني. ومن التواضع أمامها أن نعرف أن علمنا جزئي، وأن الأسباب التي نراها ليست كل ما في الوجود.

وهذا الفصل لا يعرض نظام الحكمة المتعالية كاملاً، ولا يجعل مفاهيمها التفسير الوحيد للقرآن. يأخذ منها ومن التراث الفلسفي الإسلامي ما يعين على فهم الإنسان ومسؤوليته: حقيقة الأسباب، وتفاوت القابليات، وافتقار العالم إلى الله، ومعنى أن تتحول الصفات الراسخة إلى صورة في النفس.

القسم الثاني: العلية – أسباب حقيقية غير مستقلة

من احترام العلية أن تقبل مسؤولية الأثر. الكلمة الجارحة لا تصبح بلا نتيجة لأنك «لم تقصد»، والنية الصالحة لا تعيد وحدها حقاً ضاع. تنظر إلى سلسلة الفعل: قصد، ووسيلة، ونتيجة، ثم تصلح ما استطعت منها.

ومن احترامها كذلك أن لا تتحمل نفسك كل ما يقع. ليست كل نتيجة ثمرة قرارك وحدك؛ نتداخل قرارات الآخرين والظروف الطبيعية والبنى الاجتماعية. المسؤولية العادلة تميز بين أثر شاركت فيه وأثر وقع عليك، وبين ما كان يمكن توقعه وما لم يكن في الوسع.

الأخذ بالأسباب لا ينحصر في الوسائل المادية المباشرة. العلم سبب، والمشاورة سبب، والدعاء سبب شرعي، وبناء الثقة سبب اجتماعي، والراحة سبب لحسن الأداء. انخطأ أن تختار سبباً واحداً ثم تطلب منه أن يحمل نظاماً كاملاً.

وقد يستعمل الإنسان التوكل ستاراً لترك السبب، أو يستعمل السبب ستاراً للاستغناء. الأول ينتظر حصاداً لم يزرع له، والثاني يظن أن الزرع يملك المطر والوقت والسلامة. الطريق يجمع الإتيان والافتقار.

حين لا تفهم السبب، لا نتعجل ملء الفراغ بخرافة أو اتهام. تقول: لا أعلم. ثم تجمع المعلومات، وتسأل أهل الخبرة، وتراجع قراراتك. الاعتراف بالجهل جزء من العقل، لا هزيمة له.

يعمل الإنسان كل يوم على أساس أن للأفعال نتائج: يتعلم لأن العلم سبب، ويتداوى لأن العلاج سبب، ويعتذر لأن الاعتذار قد يصلح أثراً، ويعيد التجربة لأنه اكتشف خطأ. هذا الإدراك ليس عبادة للأسباب، بل اعتراف بالنظام الذي خلقه الله.

السبب في مرتبته حقيقي، لكنه ليس مستقلاً. النار تحرق بما أودع الله فيها من خاصية وفي الظروف التي تكتمل فيها شروط الأثر. والدواء قد ينفع، لكنه لا يملك النفع من ذاته ولا يضمه في كل حالة. وقد شرح العلامة الطباطبائي أن إثبات السببية للأشياء لا يعني إخراجها من سلطان الله، وجودها وتأثيرها كلاهما قائم به.¹

ولهذا لا يصح أن نقول إن الله «يفعل من خلال الأسباب فقط» كأنه محكوم بها، ولا أن نهمل الأسباب باسم التوكل. أجرى الله العالم في العادة على أسباب، ومنحها آثارها، وهو غير مفتقر إليها ولا مقيد بها. والأخذ بها عبودية عملية؛ لأنك تعمل في العالم كما خلقه الله، لا كما تتمنى أن يكون.

¹ الطباطبائي، «الميزان»، في مباحث السببية والتوحيد الأفعالي، ولا سيما تفسير البقرة: 21-25 و255؛ استخدم لإثبات فاعلية الأسباب في مراتبها مع افتقارها إلى الله.

وما نسميه صدفة قد يكون التقاء أسباب لم نقصد اجتماعها أو لم نعرفها، لا حدثاً بلا نظام. ومع ذلك، لا يلزم أن تكون كل التفاصيل قابلة للحساب البشري، ولا أن يتحول العالم إلى آلة جبرية لا موضع فيها للاختيار. إرادتك نفسها أحد الأسباب الحقيقية في شبكة أوسع، تعمل داخل تدبير الله ولا تستقل عنه.

إذا فشلت نتيجة، فابحث فيما تستطيع مراجعته: علم ناقص، أو قرار متعجل، أو ظرف لم تحسبه، أو سبب خارج قدرتك. لا تحوّل كل فشل إلى اتهام لنفسك، ولا كل نجاح إلى دليل استحقاق. والنتيجة لا تكشف وحدها مقدار الصدق أو التوفيق.

والدعاء لا يطلب من الله إلغاء السنن، بل يتوجه إلى رب السنن: أن يهيئ سبباً، أو يصرف مانعاً، أو يلهم قراراً، أو يفتح خيراً لا تبلغه قدرتك. وقد تقع الإجابة على صورة لم تتوقعها، وقد تبقى الحكمة الخاصة غائبة عنك.

القسم الثالث: معطاك وقابلياتك

المعطى الأول يفسر تفاوت الطريق. من نشأ في أمان لا يبدأ من الموضع نفسه الذي يبدأ منه من حمل خوفاً مزمناً، ومن وجد تعليماً لا يشبه من حُرِم منه. لا تجعل النتيجة الظاهرة وحدها ميزاناً للجهد الذي بذله كل واحد.

وهنا يلزم التفريق بين أربعة ألفاظ: القابلية مجال الإمكان البنيوي المتاح للنمو أو التكوّن؛ والاستعداد مدى تهيؤ هذه القابلية للتحقق؛ والقدرة الفعلية ما

يستطيع الإنسان فعله أو تركه الآن؛ والوسع ما تقوم عليه مسؤوليته في ظرفه الواقعي، بالنظر إلى العلم والقصد والقدرة والموانع وما يستطيع تهيئة أسبابه المتاحة من تعلم أو علاج أو طلب عون. وليس الوسع أفضل أداء متخيلاً ولا قابلية بعيدة لم تدخل بعد في القدرة الفعلية.

وبعض القابليات يتيأ بالتدريب، فتقوى القدرة على الانتباه والتعبير، ويتدرب الصبر بالعمل المتكرر. وبعض الحدود قد تبقى وتحتاج إلى إدارة ورحمة. النضج ليس وعداً بأن تصير كل نفس قادرة على كل شيء، بل أن تستخرج خير ما في معطاك وتعرف متى تطلب المعونة.

والأحوال العابرة لا تستحق أن تتحول إلى تعريفات نهائية. تقول: «أشعر بالخوف» بدل «أنا جبان»، و«أخطأت» بدل «أنا الخطأ». هذا التفريق لا يخفف المسؤولية، بل يمنع الحالة من أن تسرق اسم الذات وتغلق باب التغيير.

أما الملكة فتعرف من الاستقرار واليسر النسبي. من يتصدق مرة ليس بالضرورة سخياً، ومن يغضب مرة ليس بالضرورة غضوباً. لكن كل فعل يضيف وزناً، حتى تتكوّن جهة يغلب الرجوع إليها. وهنا يصبح التكرار أكثر أهمية من الانطباع العابر.

والصورة الوجودية المكتسبة لا تحو فرادة الشخص؛ فالشخص هو الذات التي تستمر، أما الصورة الوجودية فهي الكيفية الكلية التي صار إليها ويحملها. الصبر في نفس الأم، وفي نفس القائد، وفي نفس المريض، صفة واحدة من جهة معناها، لكنها تتجسد في تاريخ وعلاقات وقدرات مختلفة. الوحدة الأخلاقية لا تنتج نسخاً متطابقة من البشر.

تبدأ الحياة بمعطيات لم تختزها: بدن، ومزاج، وأسرة، ولغة، وبيئة، وقابليات أولية، وظروف تاريخية واجتماعية. هذه المعطيات ليست حكماً أخلاقياً عليك، ولا دليل قرب أو بعد، لكنها تشكل نقطة البداية ومجال المسؤولية.

ومن الخطأ أن نتخيل ذاتاً محايدة كاملة أولاً، ثم تُلصق بها الصفات من الخارج. ومن الخطأ المقابل أن نقول إن الإنسان ليس سوى كل ما وجد نفسه عليه، فلا يستطيع أن يتغير. النفس متشخصة بوجودها، وتملك قوى وقابليات؛ وما يرسخ فيها من علم وإرادة ومحبة وملكة يصير جزءاً من صورتها المكتسبة.

أنت إذن نفس واحدة، لا حزمة صفات متفرقة. لكن النفس ليست قالباً جامداً يحمل أوصافه كما يحمل الثوب. إنها تتحول بما تعرف وتختار وتحب وتعمل. وقد قرر صدر المتألهين أن الملكة قد ترسخ حتى تصير «صورة جوهرية للنفس»، لا عرضاً خارجياً يمر بها ثم يزول.¹

وهنا ينبغي التفريق بين أربع طبقات: معطيات أولية لم تختزها؛ وقوى وقابليات يمكن أن تنمو؛ وأحوال عابرة كالخوف أو الغضب اللحظي؛ وملكات راسخة كالصدق أو البخل أو الصبر. لا يحددك خاطر مر بك، لكن ما ترضاه وتغذيه وتكرره قد يتحول إلى هيئة تصدر عنها أفعالك.

ولهذا نصح العبارة: صفاتك الراسخة تصير صورة وجودك المكتسبة. لا يعني ذلك أن ملامحك أو مرضك أو كل انفعال فيك هو ذاتك الأخلاقية، ولا أن تغيير صفة يخلق شخصاً آخر. النفس نفسها تستمر، ولذلك تثوب وتعلم وتُحاسب؛ لكنها لا تبقى على الصورة نفسها بعد أن تترسخ فيها الملكات.

1 صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص17 وما بعدها، ومباحث النفس في ج8 وج9؛ وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج1، ص208، وج2، ص436.

والعلم والفهم والإرادة والقوة، حين تصير كصفات فعلية في النفس، كمالات وجودية جزئية؛ لكن وجهة الاستجابة هي التي تمنحها قيمتها الأخلاقية وتحدد قربها أو بعدها. قد يزداد الإنسان علماً فيحسن به الظلم، أو قوةً فيطغى، أو إرادةً فيثبت على باطل. ولا تصير هذه الكمالات فضائل تامة إلا حين تنتظم حول الحق والعبودية، وترجم في رحمة وعدل وأمانة.

وما صار كيفية فعلية في النفس من علم وفهم وإرادة وملكات وقوى يدخل في التحقق الكمالي؛ أما ما بقي قابليةً أو مورداً أو ظرفاً يوسع مجال الفعل فيبقى اتساعاً أداتياً. وحقيقة الكمالات لا تساوي مقدار الفضل الشخصي في اكتسابه؛ فالفضل يقرأ بحسب ما فعله الإنسان بما أُعطي.

أنت تبدأ من معطى، ثم تسهم باختياراتك وأعمالك، داخل ما أقدرك الله عليه وبسبق هدايته ومده، في تنمية قابلياتك وتشكيل نفسك؛ لا من فراغ ولا باستقلال. لا تخلق أصل القدرة، ولا تستقل بإثمارها، لكنك فاعل حقيقي في مرتبتك. وهذا هو موضع المسؤولية بين الجبر ووهم الاستقلال.

القسم الرابع: العطاء الإلهي والقابليات المختلفة

حين ترى تفاوت العطاء، احذر حكيمين متعجلين: أن تعد السعة دليل محبة خاصة، أو تعد الضيق دليل هوان. القرآن يذكر الابتلاء بالخير والشر معاً: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]. ما أعطيته سؤال، وما منعت سؤال، ولا يكشف الجواب من الحجم وحده.

ولا يبرر الإيمان بالحكمة ترك العدل الاجتماعي. إذا تفاوتت الفرص، كان من مسؤولية القادر أن يفتح باباً، ومن وظيفة المجتمع أن يرفع ظلماً يمكن رفعه. القول بأن لكل إنسان قدرًا لا يجعل الفقر أو الحرمان نظاماً ينبغي تقديسه.

والقابلية ليست استحقاقاً سابقاً على الله، كأن الموجود يطالب بحصة واجبة عليه. هي نفسها عطية ومرتبة في الخلق. ولذلك يكون الشكر على أصل الوجود، والسؤال عن كيفية استعمال ما أُعطي، لا الخصومة مع قصص الآخرين.

وعندما لا تفهم حكمة تفاوت بعينه، لا تملأ المسافة بجواب سهل. قد يكفيك أن تعرف أن علمك محدود، وأن العدل الإلهي ينفي الظلم، وأن واجبك هو العمل بما ظهر من حق ورحمة، لا ادعاء الخريطة الكاملة.

قد نسأل بعد ذلك: إذا كان الله واحداً ومصدر الوجود واحداً، فلماذا تختلف الأنصبة والقابليات والظروف؟ لا يقدم هذا الكتاب جواباً يختزل حكمة الله في سبب واحد، ولا يقول إن العطاء الدنيوي موزع بالتساوي ثم يختلف الناس فقط في استقباله.

المصدر واحد، لكن العطاء متنوع بحكمة، والمعطيات مختلفة، والقابليات مختلفة، والاستجابات مختلفة. بعض التفاوت ابتلاء، وبعضه يفتح تكاملاً بين الناس، وبعض حكمته لا نخطط بها. والعدل الإلهي لا يعني تماثل القصص، بل أن لا يُظلم أحد، وأن يكون الحساب بحسب ما بلغه الإنسان وفهمه ووسعه.

يستخدم الحكماء كلمة «الفيض» للتعبير عن افتقار الموجودات المستمر إلى الله في أصل وجودها وبقائها، لا عن خروج شيء من ذات الله، ولا عن عالم

مستقل يفيض آلياً من غير إرادة وحكمة. نستعمل المصطلح هنا بهذا الحد، ولا نبني عليه نظاماً فلسفياً كاملاً.

والله منزّه عن المكان؛ فلا يوصف بأنه داخل الكون أو خارجه بالمعنى المكاني الذي يقال للأجسام. الكون كله قائم به ومفتقر إليه، وهو محيط به علماً وقدرة وقيومية، من غير حلول ولا اتحاد.

وكذلك لا تعني بساطة الفعل الإلهي أن الله لا يعلم المخلوقات تفصيلاً أو لا يريدّها. لا يعمل الله تحت ضغط الزمن كما نعمل نحن، لكن كل موجود معلوم له وواقع بإرادته وحكمته، لا نتيجة عمياء لنظام استقل عنه.

تضرب الآية مثلاً بالماء الذي يسيل في الأودية: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: 17]. وتأمل المشهد: الماء واحد، والسماء واحدة، والأودية مختلفة، فيحمل كل واحدٍ بقدره. نستفيد من الصورة تفاوت القابليات في تلقي الحق، لا قاعدة تقول إن كل إنسان أُعطي في الدنيا المقدار نفسه ثم كان الاختلاف منه وحده.

صورة الأودية نافعة لأنها تجمع وحدة المطر واختلاف المجاري: الوادي الضيق يحمل بقدره، والواسع يحمل بقدره. والوادي في جانبه المكتسب ليس مجرى مختوماً؛ تستطيع — بالتعلم والصحبة والتزكية — أن توسع بعض ضفافه، ويبقى بعض حدوده معطى يُدار بحكمة ورحمة. لكنها صورة للقابلية في تلقي الحق، لا حكماً بأن أنصبة الدنيا متساوية، ولا ذريعةً لتحميل المحروم مسؤولية حرمان لم يختره.

عملياً، يدعوك هذا الفهم إلى أمرين متلازمين: أن تشكر معطاك وتعمل على تنميته، وأن تكف عن تحويل اختلاف الناس إلى حكم على قيمتهم. لا تفخر بما لم تصنع بدايته، ولا تحتقر نفسك لما لم تختره، ولا تتوقف عن السعي فيما تستطيع تغييره.

ومن هنا نصل إلى الأضداد. فالقدرة لا تظهر في فراغ، والصفة لا ترسخ بلا موقف، والقابلية لا تخرج إلى الفعل من غير عالم يقاومها ويستدعيها.

القسم الخامس: الأضداد – مجال الحركة لا تمجيد الألم

تقوم خبرتنا بهذه النشأة على فروق وتوترات: ليل ونهار، حركة وسكون، حرارة وبرودة، قوة وضعف، حياة وموت. وفي عالمنا، تتيح بعض هذه الفروق، مع التغير والحدود والمقاومة، صوراً من الحركة والاختيار وخروج القابليات إلى الفعل. والمقصود وصف بنية النشأة الدنيوية كما نعرفها، لا تقرير أن كل وجود خالٍ من التضاد لا يتحرك، ولا أن كل ألم لازم للنمو. كما لا يعني ذلك أن طرفي كل تقابل متساويان في القيمة، أو أن الظلم يحتاج إلى العدل كي يكتمل؛ فثمة فروق طبيعية تتيح الحركة، وشر أخلاقي يجب منعه.

الأضداد بنية، لا مبرراً للشر

في العالم المادي تنشأ صور كثيرة من الحركة من فروق: فرق الضغط يحرك الهواء، وفرق الجهد يحرك الشحنة، والعضلة تقوى تحت مقاومة محسوبة ثم

تحتاج إلى راحة. وتذكرنا هذه الأمثلة بأن الفروق تتيح الحركة، لكنها لا تثبت أن كل ألم إنساني مطلوب أو نافع.

وفي الحياة النفسية لا تظهر الشجاعة من غير خوف يمكن مواجهته، ولا الصبر من غير مشقة، ولا العدل من غير قدرة على الميل. القيمة الأخلاقية تنشأ لأن للإنسان بدائل ولأنه يرحح بينها، لا لأن الشر صار خيراً في ذاته.

أما المرض والفقر والظلم، فليست «أقطاباً» يجب إبقاؤها ليظل العالم متوازناً. قد تفتح مقاومتها مجاًلاً لصفات عظيمة، لكن الواجب هو العلاج والإغاثة والعدل. استخراج الخير من مواجهة الضرر لا يحول الضرر إلى مصلحة مقصودة لذاتها.

المقاومة تخرج القابلية إلى الفعل

قد يحمل الإنسان قابلية لاكتساب الصبر، لكنها لا تصير ملكة بمجرد وجودها بالقوة. يحتاج إلى موقف يختار فيه الانتظار المنضبط بدل الانهيار أو العدوان. وكذلك الرحمة والصدق والشجاعة: يرسخ كل منها حين يتكرر الفعل الموافق في مواقف حقيقية.

ولا يعني ذلك أن كل مقاومة تقوي. المقاومة المفرطة قد تؤذي البدن والنفس، وقد تحتاج إلى حماية وعلاج. كما أن التدريب يحتاج إلى جرعة وراحة، تحتاج المجاهدة إلى حكمة ورفق وبيئة تعين. تكليف الإنسان بحسب وسعه جزء من نظام التكوّن لا استثناء منه.

من هنا نفهم أن الاحتكاك يمنح إمكاناً للتكوّن. والنتيجة تتوقف على الاستجابة، وعلى المدد والبيئة، وعلى ما يملكه الإنسان من قدرة فعلية وما يتسع له وسعه. قد يستخرج شخص من المحنة رحمة، ويخرج آخر منها مجروحاً يحتاج إلى من يحمله، وكلاهما باقٍ في دائرة العبودية والرحمة.

الأضداد في داخلك

تختبر النفس توترات داخلية: رغبة عاجلة ومعنى أبعد، خوف وواجب، حب للراحة وطلب للكمال. لا نقول إن في الإنسان ذاتين، بل إن النفس الواحدة تتلقى دوافع متعددة ثم تختار ما تتبناه وتغذيه.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7-8].
ولاحظ حدّ الإلهام: لا يعني أن الله زرع الشر فضيلةً موازية للخير، بل عرّف النفس الطريقتين وجعلها قابلة للتمييز والمسؤولية. التقوى هي اختيار الحق مع القدرة على خلافه.

والتوتر ليس دائماً علامة مرض أو نفاق. قد يعرف العقل واجباً ويثقل على القلب، ثم تقوم الإرادة بالفعل. هذا هو ميدان المجاهدة. الخلل يبدأ حين تتحول الوجهتان المتعارضتان إلى نظام دائم من التبرير، فيقال للهوى حق وللحق حق في الوقت نفسه.

الدفع لا يساوي تمجيد الصراع

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]. الآية في سياق دفع الفساد بقوة مقابلة، وتعلمنا أن ترك الظلم بلا

مقاومة يوسّع فسادَه. لا تجعل كل نزاع قانوناً كونياً محموداً، بل تضع القوة في خدمة الحق والميزان.

ومن هنا يكون الإصلاح حركةً داخل العالم: قانون يحد الظلم، وعلاج يقاوم المرض، وتربية تضعف العادة، ومحاسبة توقف الانحراف. لا نتظر من الضد أن يصلحنا وحده؛ ندفعه بما شرع الله من أسباب، ونحرس أنفسنا من أن نتشبه بما نقاوم.

من الظلمات إلى النور

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257].
الخرج ليس وعداً بأن كل ظلمة ستصير تلقائياً نوراً، بل هداية وعمل: من جهل إلى علم، ومن عبودية الهوى إلى عبودية الله، ومن ظلم إلى عدل.

وقد يبقى المرض مرضاً والفقد فقداً، لكن الإنسان يستطيع أن لا يمنحهما سلطة تعريفه كله. يطلب العلاج، ويستعين، ويقبل حزنه، ويختار ما يستطيع من حق. وإذا انفتح من ذلك معنى أو قوة، فهي ثمرة هداية واستجابة، لا خاصية ميكانيكية في الألم.

سنة الاحتكاك: حين تلتقي القابلية بالفعل

الأضداد لا تتغيرك بمجرد وجودها حولك. التغير يبدأ حين تلامسك وتستدعي قراراً: تقبل أو ترفض، تصبر أو تعتدي، تطلب العون أو تنكر الحاجة. بهذا اللقاء تخرج القابلية إلى الفعل، ويترك الفعل أثراً في النفس.

الفطرة أصل معطى، والصفة الراسخة مكتسبة. وكل معرفة تقبلها، وكل فعل تكرر، وكل توبة تصلح بها انحرافاً، يدخل في صورة النفس. وهكذا تسهم في تشكيل نفسك من غير أن تخلق أصلها أو تستقل بثرتها.

وحين نفهم الاحتكاك بهذه الدقة، يبقى السؤال عن الشر نفسه: كيف يكون الضرر حقيقياً، ومع ذلك لا يكون أصلاً مستقلاً ينازع الخير؟ هذا ما يفتحه القسم التالي.

القسم السادس: الشر – ليس أصلاً مستقلاً

قد يسأل المتألم: ماذا يفيدني أن أعرف أن الشر ليس أصلاً مستقلاً؟ يفيد أنه لا يعطي الشر مقاماً فوق حجمه: الضرر واقع، لكنه ليس رباً للوجود، ولا قوة مطلقة تكتب المصير. يمكن مقاومته، ويمكن إصلاح بعض آثاره، ويمكن أن تبقى في النفس مساحة لا يملكها.

والفرق بين التفسير والتبرير حاسم. قد نفسر كيف أنتجت ظروف ما جريمة، لكن التفسير لا يبررها. وقد نفهم أثر جرح في سلوك شخص، لكن الفهم لا يسقط حق من أذاه. الرحمة بالإنسان والعدل مع الفعل يمكن أن يجتمعا.

لا نستخدم «الشر عدمي» لإسكات احتجاج المظلوم، بل لنفي أن يكون للشر كمال مستقل. ثم نعود إلى الأرض: حق يجب رده، وألم يحتاج إلى علاج، ومعتدٍ يجب منعه، ونفس تحتاج إلى ألا تتشبه بما قاومته.

يبقى السؤال الذي لا ينبغي الهرب منه: إذا كان الوجود مخلوقاً بحكمة، فلماذا المرض والظلم والفقد والكوارث؟ والجواب الفلسفي، إن قيل بلا عناية، قد يجرح بدل أن يوضح. لذلك نبدأ بالتمييز بين حقيقة الشر وجودياً وخبرة الألم إنسانياً.

لا يوجد في الرؤية التوحيدية أصل شرير مستقل يقابل الله أو ينازعه. ويشرح الحكماء أن كثيراً من الشر يرجع إلى فقد كمال يليق بالشيء: العمى فقد البصر، والمرض فقد السلامة، والظلم سلب حق وإفساد نظام. لكن هذا لا يجعل أثر الفقد وهماً.

وقد ناقش صدر المتألهين أن الألم نفسه تجربة وجودية وجدانية حقيقية، حتى إذا كانت جهة الشر فيه متصلة بفقد السلامة أو وقوع الضرر.¹ لذلك لا نقول للمريض إن مرضه «عدم» وكفى، ولا للمظلوم إن ألمه مجرد قصور رؤية.

الشر فقد وضرر وفساد حقيقي الأثر

النار موجودة نافعة من جهات كثيرة، لكنها تضر حين تحرق بدنًا. والمرض عملية واقعة، وشره يظهر في ما يهدمه من صحة وقدرة. والظلم فعل موجود، وشره في سلب الحق وإفساد النفس والمجتمع. الشيء قد يكون خيراً من جهة وشرّاً نسبياً من جهة أخرى، من غير أن يصير الشر جوهرًا مستقلاً.

ومن الشر ما يصدر عن اختيار الإنسان: عدوان، وخيانة، وإهمال، واستغلال. ينسب القرآن الفساد إلى كسب الناس: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج7، ص58-64، في تحليل الشر والألم والتمييز بين العدم والضرر الوجداني الحقيقي.

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴿[الروم: 41]﴾. وهذا لا يعني أن كل مصيبة فردية عقوبة على ذنب صاحبها، ولا أن المظلوم مسؤول عن ظلم وقع عليه.

ومن الألم ما يتصل ببنية العالم المادي: مرض، وشيخوخة، وفقد، وكوارث. وقد تنكشف لنا بعض أسبابه، وتبقى حكمته الخاصة غائبة. لا يحق لنا أن نجزم أن كل باب أغلق حماية، أو أن كل مرض رسالة محددة، أو أن كل فقد طريق مختار لنمو صاحبه.

حدود التفسير

قد يخرج الله من الشدة خيراً لم يقصده المؤذي، وقد تتحول المحنة في استجابة الإنسان إلى صبر أو رحمة أو شجاعة. لكن الإمكان ليس ضماناً. وقد يخرج الإنسان مجروحاً يحتاج إلى وقت وعلاج وصحة، ولا يكون تعثره دليل ضعف إيمان.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المك: 14]. تمنحنا الآية ثقة بعلم الله ولطفه، لا علماً بتفسير كل واقعة. نحسن الظن من غير ادعاء، ونطلب الحكمة من غير أن ننسب إلى الله معنى لم يقم عليه دليل.

والتوحيد لا يطلب منك الاستسلام للشر. دفع الظلم، وعلاج المرض، وإغاثة المنكوب، وإصلاح السبب، كلها أعمال داخل سنن الله. الشر ليس نصفاً ضرورياً يكتمل به العدل؛ الظلم فساد يُقاوم، وإن استطاع التدبير الإلهي أن يستخرج من مقاومته خيراً.

رؤية تتحرر من ثنائية اليأس والتبسيط

تتحرر حين لا تجعل الشر إلهاً آخر، ولا تجعل الألم وهماً. تعترف بالضرر، وتبكي الفقد، وتطلب العلاج، وتقاوم الظلم، وفي الوقت نفسه لا تسلم بأن الشر يملك الكلمة الأخيرة أو أن الماضي صار قدرك.

هذه الرؤية لا تشرح كل شيء، لكنها تضبط موضعك: أنت مسؤول عما تستطيع من دفع وإصلاح واستجابة، والله أعلم بالصورة التي لا تراها. ومن هنا تنتقل من سؤال الشر في الوجود إلى سؤال الإنسان حين يلامسه الشر والألم: ماذا يكشف الاحتكاك؟ وماذا يمكن أن يتكوّن في المقاومة؟

خاتمة الفصل: من فهم الكون إلى السير فيه

بلغنا نهاية الفصل وقد ظهرت خمسة ضوابط: للأسباب آثار حقيقية لكنها غير مستقلة؛ ومعطيات الناس وقابلياتهم متفاوتة؛ والعطاء الإلهي متنوع لا يختزل في معادلة واحدة؛ والأضداد تفتح مجال الحركة من غير أن تبرر الشر؛ والضرر واقع، لكنه لا يملك أصلاً مستقلاً ولا الكلمة الأخيرة.

هذه المعرفة لا تمنحك تفسيراً سريعاً لكل ما يقع. تمنحك موضعاً للعمل: تبحث عن السبب، وتبذل ما تستطيع، وتقاوم الظلم، وتعالج الألم، وتعرف أن قدرتك محدودة وأن افتقارك لا يلغي مسؤوليتك.

ومن هنا ينتقل الكتاب من نظام الوجود إلى الإنسان حين يلامسه هذا النظام: كيف يتلقى الشدة والنعمة؟ ماذا تكشف البيئة والوسوسة؟ وكيف يمكن للمقاومة أن تستخرج قوة من غير أن تجدد الألم؟ هذا هو موضوع الفصل التالي: سنن الاحتكاك.

وقفة تأمل

قبل أن تطوي هذا الفصل، استحضر أمرًا يقاومك الآن: مرضًا، أو عادة، أو ظلمًا، أو حدًا في قدرتك. لا تفترض أنه «منحة» مقصودة تعرف سرها. اسأل: ما سببه الظاهر؟ ما الذي يجب دفعه أو قبوله؟ وما الاستجابة التي تحفظ حقك ووجهتك من غير إنكار للألم ولا استسلام له؟



الفصل الخامس

سنن الاحتكاك

القسم الأول: «في كبد» – معنى المكابدة وحدودها

ختمنا الفصل السابق عند حد لا تكفي فيه المعرفة المجردة. حين ينزل الألم، لا يعيش الإنسان تعريفات العلية والشر، بل يعيش بدءاً يرتجف وقلباً يسأل وعقلاً يبحث عن سبب. لذلك يبدأ هذا الفصل من واقع المكابدة، لا من تجيدها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4]. وتدور مادة «الكبد» في اللغة حول الشدة والمكابدة، ويأتي منها أيضاً كبد الشيء بمعنى وسطه. وفي تفسير الآية يظهر معنى المكابدة ومقاساة شؤون الحياة. وتسمح هذه الظلال اللغوية بأن تقرب للقارئ صورة الإنسان داخل عالم من حاجة وعمل

وحدود، من غير أن نحمل الآية على جميع استعمالات المادة في آن واحد. فهي تصف واقع الإنسان المخلوق محتاجاً، متغيراً، محدوداً، لا عالماً بلا تعب.¹

واقع المكابدة، لا عبادة الألم

النوم والسكينة والصحة نِعَمٌ، ورفع المشقة مقصد معتبر في الشريعة؛ فليس معنى «في كبد» أن كل لحظة يجب أن تكون مؤلمة، ولا أن الراحة نقص، ولا أن الإنسان مأمور بالبقاء في الضرر. لكن الحياة البشرية لا تنفك كلياً عن حاجة وعمل وفقد وحدود.

قال القرآن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ وفي هذا التعبير تصوير للإنسان داخل عالم تتداخل فيه الحاجة والعمل والحدود والمقاومة. وهو وصف لبنية التجربة الإنسانية، لا أمرٌ بطلب الألم أو البقاء فيه.

أنت تجوع فتطلب الغذاء، وتجهل فتتعلم، وتضعف فتستعين، وتفقد فتألم. هذه البنية تجعل الإنسان محتاجاً إلى الله وإلى الناس والأسباب، وتمنع وهم الاكتفاء الذاتي. لكنها لا تجعل مقدار الألم مقياساً للكرامة أو القرب.

بعض المشقات طبيعية في التعلم والعمل والعلاقة، وبعضها نتيجة اختيار خاطئ، وبعضها ظلم يجب إزالته، وبعضها مرض يحتاج إلى علاج. جمعها كلها في تفسير واحد يظلم التجربة ويعطل المسؤولية.

¹ الراغب الأصفهاني، «مفردات ألفاظ القرآن»، مادة «كبد»؛ والطباطبائي، «الميزان في تفسير القرآن»، ج20، تفسير سورة البلد: 4، في معنى خلق الإنسان في مكابدة ومقاساة لشؤون حياته. واستعملت الدلالات المعجمية في المتن للتقريب، من غير حمل الآية على جميع استعمالات المادة في آن واحد.

ولهذا لا نقول: كل ما يؤلمك صمم ليصنعك على نحو خاص نعرفه. نقول: لا يقع شيء خارج علم الله وسلطانه، ويمكن للتدبير الإلهي أن يستخرج من مقاومة الضرر خيراً، لكننا لا نملك دائماً أن نحدد الحكمة الخاصة، ولا نطلب من المتألم أن يتظاهر بفهمها.

المشقة المختارة والمشقة الواقعة

ثمة فرق بين مشقة تختارها لغاية صحيحة، ومشقة تقع عليك من غير اختيار. نتعب في طلب العلم أو رعاية مريض أو أداء أمانة؛ هنا يمنح القصدُ الجهدَ وجهه. أما الظلم والمرض والفقد فلا تصبح خيرات لمجرد وقوعها، وإن أمكن أن يكون ردك عليها ميداناً للتكوّن.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7-8]. يدعو السياق إلى مواصلة العبادة والعمل والتوجه إلى الله بعد الفراغ، لا إلى طلب الإنهاك لذاته. النصب المحمود جهدٌ في حق، تحكمه الوجهة والوسع، ويجاوره حق الراحة والعلاج.

حين تختار جهداً صالحاً، لا تتحول إلى مالك للنتيجة. تزرع وتندرب وتصبر، ثم تبقى الثمرة تحت أسباب أوسع منك. وحين تقع عليك مشقة، تبدأ بالسؤال العملي: ما الذي يمكن دفعه؟ ما الذي يحتاج إلى قبول مؤقت؟ ومن يستطيع أن يعينني؟

المكابدة مشتركة، والقصص غير متطابقة

الآية تخاطب الإنسان، فلا أحد يعيش حياة خالية من كل كبد. لكن هذا لا يعني أن آلام الناس متساوية أو أن لكل ظاهر رخاءً سرّاً يعادله. المقارنة العادلة تعترف بتفاوت الأعباء والموارد، ولا تستخدم عمومية المكابدة لإسكات من حمل ظلماً زائداً.

والأنبياء ابتلوا، لكننا لا نستنتج أن كثرة الألم وحدها دليل منزلة. القرب يظهر في الصدق والعبودية، وقد تكون النعمة نفسها ابتلاءً أشد في باب الشكر والعدل. ليس السؤال: من تألم أكثر؟ بل: كيف أدى كل إنسان ما وسعه في قصته؟

من سؤال الهرب إلى سؤال الاستجابة

لا يطلب منك الإيمان أن تتوقف عن طلب الفرج. الأنبياء دعوا بكشف الضر، والشرع أمر برفع الظلم والتداوي. الذي يتغير هو وهم الحياة بلا حدود: بدل أن تعد كل مشقة فضيحة أو عقوبة، تراها واقعاً يحتاج إلى فهم وسبب ودعاء واستجابة.

وهكذا يفتح معنى «في كبد» باب الفصل من غير أن يغلقه بإجابة واحدة: الإنسان يعيش في عالم مكابدة، لكنه لا يعرف من وقوع البلاء وحده أهو عقوبة أو رفع أو أثر سبب أو حكمة غائبة. لذلك نتقل إلى القاعدة التالية: لا تحكم على معنى الابتلاء من وقوعه.

القسم الثاني: الابتلاء – لا تحكم على معناه من وقوعه

قد يكون من الرحمة أن تمتنع عن تفسير بلاء غيرك. حين تقف إلى جوار مريض أو مفجوع، لا يحتاج دائماً إلى درس في الحكمة؛ قد يحتاج إلى حضور وصمت وخدمة. والقول السهل «هذا خير لك» قد يضيف إلى ألمه شعوراً بأنه مطالب بإنكار ما يعيشه.

أما مع نفسك، فيمكنك أن تسأل عن المعنى بعد أن تؤدي واجب السبب. لا تستبدل الفحص الطبي بالتأويل، ولا رد الحق بتزكية الصبر. ابدأ بما تعرفه، ثم افتح قلبك لما قد نتعلمه من غير إجبار على جواب سريع.

والابتلاء بالنعمة لا يقل شأنًا. السعة تكشف موقع المال، والنجاح يكشف العجب، والنفوذ يكشف العدل. كثير من الناس يحسنون الاستغاثة في الشدة، ويصعب عليهم الشكر حين تجري الرياح بما يريدون.

حين ينزل البلاء، يندفع الإنسان إلى تفسيره: أهو عقوبة؟ أهو رفع؟ أهو أثر خطأ؟ لكن وقوع المصيبة وحده لا يمنحنا جواباً جاهزاً. قد تكون نتيجة سبب اختاره الإنسان، أو ظلماً وقع عليه، أو محنة تكشفه، أو باباً لرفع درجته، وقد تبقى حكمتها الخاصة غائبة.

لهذا لا يصح أن نقول إن كل ابتلاء عقوبة، كما لا يصح أن نقول إن كل ابتلاء تصميم تربوي خاص نعرف رسالته. الأنبياء والأولياء ابتلوا، والظالم قد يُمهّل، والسعة ليست شهادة رضا، كما أن الشدة ليست شهادة غضب.

الابتلاء يكشف لأن الموقف يخرج ما في النفس إلى الفعل: خوفها، وصبرها، واعتمادها، وتعلقها. والله لا يحتاج إلى الاختبار ليعلم؛ إنما يقع الكشف في عالم الفعل حتى يعرف الإنسان نفسه، وتقوم الحجة، وتحول القابلية إلى اختيار ظاهر.

لكن الكشف لا يعني أن الإنسان سيخرج أقوى حتمًا. قد يتعلم، وقد ينهار، وقد يحتاج إلى من يحمله. قيمة الابتلاء ليست آية في الألم، بل في ما يفتحه من مجال للاستجابة، وما يمنحه الله من توفيق، وما يختاره الإنسان ضمن قدرته.

التكليف بحسب الوسع، لا ضمان سهولة الحادثة

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]. قف عند موضعها بدقة؛ فالآية في التكليف والمؤاخذة: لا يطالب الله العبد بما خرج عن قدرته، ويحاسبه على ما وسعه. وليست وعدًا بأن كل حادثة ستبقى دون الحد النفسي الذي يمكن احتماله من غير انهيار أو علاج أو عون.

قد تثقل المصيبة على الإنسان، ويضعف تركيزه، ويحتاج إلى طبيب أو معالج أو سند أسري. هذا لا يخرج من الصبر، ولا يجعل إيمانه موضع اتهام. بل قد يكون طلب العون هو الفعل الذي بقي في وسعه، وبه يؤدي مسؤوليته في تلك المرحلة.

اليسر مع العسر

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5-6]. لا تعد الآية بأن العسر سيزول فوراً، لكنها تمنع أن نراه كلمة مغلقة بلا منافذ. قد

يكون اليسر قدرة على الاحتمال، أو شخصاً يعين، أو معنى يتضح، أو علاجاً يتدرج، أو باباً آخر يفتح.

ولا يجوز أن نحول اليسر إلى تفسير قاطع: «منعك الله لأنه أراد كذا». قد نرجو اللطف، ونكتشف بعض الحكمة، لكننا لا نملك علم الغيب. ما نملكه هو واجب اللحظة: سبب نبذله، وضرر ندفعه، ودعاء نرفعه، ووجهة نحفظها.

التوبة لا تجعل الذنب مطلوباً

الإنسان قد يخطئ تحت الضغط، وقد يتكشف له ضعف لم يكن يراه. الذنب انحراف عن الوجهة، وليس جزءاً مطلوباً من تصميم الرحلة. لكن الخطأ لا يلزم أن يصير خاتمة؛ فالتوبة تمنع رسوخه، وتفتح للإصلاح طريقاً.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: 70]. لا يصبح الذنب خيراً في ذاته؛ إنما يبدل الله أثر السيئات بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح.

وهكذا يتحول السؤال من «ما الرسالة الخاصة في كل ما حدث؟» إلى أسئلة أصدق: ماذا أعرف من سببه؟ ما الواجب الذي أستطيعه؟ ما الذي كشفه في نفسي؟ وما الإصلاح الذي يمنع الألم من أن يرسخ في ظلماً أو يأساً؟

مشهد: السيدة زينب عليها السلام أمام ابن زياد

ولأن المعاني تتجلى في الأشخاص أوضح مما تتجلى في التعريفات، تأمل مشهداً من سيرة أهل البيت عليهم السلام. شهدت السيدة زينب بنت علي عليهما السلام مقتل أخيها الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ثم سيقّت مع السبايا إلى

الكوفة. ونُقل في «اللهوف» أن عبيد الله بن زياد قال لها على جهة الشماتة: «كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟» فقالت: «ما رأيت إلا جميلاً».¹

لم تكن الكلمة إنكاراً للفجعة؛ فقد حزنّت زينب وبكت، ولم يكن ثباتها إلغاءً لحزنّها الإنساني. ولم تكن حكماً بأن الألم جميل في ذاته، ولا مطالبةً لكل مصاب بأن يرى مأساته كذلك. كان الجمال في ثبات الوجهة والوفاء للحق: أن الذين مضوا ثبتوا على وجهتهم إلى الله، وأن الشماتة لم تنتزع منها ميزانها.

هنا يظهر ما قد تصنعه الوجهة حين ترسخ. لم يملك الفقد أن يحول موقفها أمام الشامت إلى انكسار أو أن ينزع مرجعها من قلبها. وهذا مقام يُقتدى به بقدر الطاقة، لا معياراً نُجلد به النفوس المثقلة؛ فالناس متفاوتون في الاحتمال والمعطى، وكلُّ يسأل بحسب وسعه.

القسم الثالث: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]. تجمع الآية ثلاثة معان: أن الحياة مجال ابتلاء، وأن الناس مختلفون في أحوالهم واستجاباتهم، وأن الميزان إحسان العمل لا كثرة الحركة وحدها.

¹ أورد السيد ابن طاووس في «اللهوف في قتل الطفوف»، ج 1، ص 94، خبر دخول السيدة زينب عليها السلام على عبيد الله بن زياد وقولها: «ما رأيت إلا جميلاً». استعمل الخبر شاهداً أدبياً وتاريخياً على ثبات الوجهة والوفاء للحق، لا على جمال الألم في ذاته ولا لإلزام كل مبتلى بالمقام نفسه.

﴿ليلوكم﴾: ظهور الفعل في الزمن

لا يختبر الله ليكتسب علماً لم يكن له؛ علمه سابق محيط. يقع الابتلاء في عالم الفعل حتى تخرج القابلية إلى اختيار ظاهر، ويعرف الإنسان نفسه، وتقوم المسؤولية على ما وقع منه لا على دعوى لم تُختبر.

ولا يلزم أن تكون كل حادثة اختباراً فردياً مفصلاً نعرف سؤاله. الحياة كلها مجال ابتلاء بمعنى أن النعمة والشدة والقدرة والعجز تضع الإنسان أمام أفعال، لكن الحكمة الخاصة في واقعة بعينها قد تبقى مجهولة.

﴿أيكم﴾: اختلاف القصص وعدل الحساب

يختلف الناس في المعطيات والبيئات والقدرات، ولذلك لا يكون إحسان العمل نسخة واحدة. يحاسب الإنسان بحسب علمه ووسعه وما تيسر له من أسباب، ولا يُطلب منه أن يؤدي قصة غيره.

لكن اختلاف الوسع لا يحول كل ميل إلى عذر. يسأل الإنسان عما كان يعرفه ويقدر عليه، ويطلب المعونة حيث يعجز، ويعيد التقييم إذا اتسعت قدرته أو ظهر له من الحق ما لم يكن يراه.

﴿أحسن عملاً﴾: صحة وإخلاص وإتقان

ولاحظ أن إحسان العمل لا يعني النية وحدها. العمل الحسن يوافق الحق في صورته، ويصدق القصد في باطنه، ويؤدي بإتقان مناسب للقدرة. فلا تصبح الوسيلة الظالمة حسنة بنية صالحة، ولا يصير الشكل الصحيح كامل الأثر إذا تعمد صاحبه الرياء.

وقد يكون عمل قليل ثابت في موضعه أصدق من اندفاعة كبيرة تنطفئ، لكن ذلك لا يُستخدم لاحتقار الفرائض أو الكثرة النافعة. الكيف والكم كلاهما معتبران حين يوضع كل منهما في ميزانه.

بهذا يصبح الابتلاء ميداناً لصدق العمل، لا مسابقةً في مقدار الألم. ما يهم هو الكيفية التي استجبت بها لما أُعطيت أو مُنعت، وما الذي بدأ يرسخ في نفسك من تلك الاستجابة.

الأبعاد الأربعة في ميدان الابتلاء

ولأن الابتلاء يضع الإنسان كله في الموقف، يمكن أن نقرأ أثره من الجهات الأربع التي عرفناها: كيف تأثر الجسد؟ ما الذي تحرك في القلب؟ كيف فسّر العقل؟ وإلى أي وجهة رجعت الروح؟ هذه أسئلة للفهم، لا أحكاماً جاهزة على الإيمان.

قد يرهق الابتلاء الجسد فيضيق مجال الاختيار، وقد يوقظ في القلب تعلقاً أو خوفاً، وقد يحصر العقل في تفسير واحد، وقد يضعف حضور المعنى الروحي. لا نقول إن «الروح المتصلة لا تنكسر»؛ الإنسان قد ينكسر نفسياً ويظل مؤمناً. الواجب أن نخطب كل جهة بما تحتاجه من علاج وعلم وذكر وعون.

وقد يضع الابتلاء الإنسان كله في الميدان دفعة واحدة. حين ينزل بك بلاء ثقيل، تختبر جهة الروح، وينكشف القلب، ويتزعزع الفهم، ويتألم الجسد — كل ذلك في وقت واحد. لهذا تحتاج الاستجابة إلى إنسانك كله، لا إلى موعظة منفصلة عن واقعه.

البيئة التكوينية: الرحم الذي لا تراه

البيئة الموروثة تفسر جزءاً من شاكلتك ولا تعفيك من مراجعتها. وقد تحتاج إلى وقت طويل كي ترى ما كان في بيتك «طبيعياً» وهو في الحقيقة خوف أو قسوة أو صمت عن الحق. الوعي هنا لا يطلب محاكمة الماضي كله، بل فهم ما انتقل إليك كي لا تمرره بلا اختيار.

والبيئة المختارة ليست قراراً واحداً. هي ما تسمح له أن يسكن جدولك: حسابات نتابعها، ومحادثات تكررهما، وأماكن تعود إليها. تغيير الشاكلة قد يبدأ بتغيير إشارة صغيرة كانت تستدعي السلوك كل يوم.

ولا يكفي أن تخرج من بيئة ضارة؛ تحتاج إلى بديل يحمل المعنى الذي تريد تثبيتته. الفراغ يجذب العادة القديمة. الصحبة الصالحة ليست رقابة على حياتك، بل حضور يجعل الخير مألوفاً وأيسر وقابلاً للتكرار.

لا يأتي الابتلاء في صورة حادثة منفردة فقط. أحياناً يكون الابتلاء هو المحيط الذي تكرر داخله أيامك: بيتك، وصحبتك، ولغتك، وما تسمعه وتراه، والقنوات التي تتقدم أمامك. هذه كلها جزء من الرحم الثاني الذي تتكوّن فيه النفس.

البيئة التكوينية شبكة الظروف والعلاقات والرسائل والنماذج والحوافز والفرص والعوائق — المادية والاجتماعية والثقافية — التي تسهم، عبر الزمن، في تشكّل الإنسان وتكوّنه كله. فتؤثر في معارفه ومحبوباته وميوله وعاداته وشاكلته ووجهته، وفيما يراه ويفهمه ويألفه ويستسهله ويقدر عليه؛ من غير أن تحدده حتماً أو تلغي فاعليته.

فالبينة لا تختار عنك، لكنها تجعل بعض المعاني أقرب، وبعض الأفعال أيسر، وبعض الانحرافات مألوفة حتى تفقد غرابتها. وما يتكرر حولك قد يدخل ببطء في طريقة رؤيتك، ثم في ميولك، ثم في أفعالك. وقد نلخص الغزالي أثر الصحبة بقوله إن «الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه».¹

ولست مسؤولاً عما لم تختره من بداياتك كما لو كنت قد اخترته. فالبينة سبب حقيقي في التكوّن: قد تيسر بعض المسارات أو تثقلها، وقد تضيق مجال الاختيار أو تزيده في واقعة. لذلك تُقرأ المسؤولية بحسب الوسع والبدائل وما أتيح فعلاً؛ وما تقدر على تغييره أو طلب العون فيه يدخل في سعيك.

وفي عصر الشاشات لا تقتصر البيئة على البيت والأصدقاء. ما نتابعه يومياً، واللغة التي تستهلكها، والصور التي تتكرر أمامك، تصبح مجسداً طويلاً ولو كنت وحيداً. واختيار ما يتكرر حولك أحد وجوه مشاركتك المسؤولية في تشكيل نفسك.

وتذكر أيضاً أنك لست متلقياً فقط؛ أنت جزء من البيئة التكوينية للآخرين. كلمة تشجع، أو سخرية تتكرر، أو خلق يراه منك طفل، قد تجعل الحق أيسر في نفس غيرك أو تجعل الخطأ مألوفاً. الإنسان كله يتكوّن في بيئة، لكنه لا

¹ أبو حامد الغزالي، «إحياء علوم الدين»، كتاب آداب الألفة والأخوة والصحبة، وانظر أيضاً: Rachel I. McDonald and Christian S. Crandall. "Social Norms and Social Influence." Current Opinion in Behavioral Sciences 3, 2015, pp. 147-151. DOI: 10.1016/j.cobeha.2015.04.006. Brett Laursen and René Veenstra. "Toward Understanding the Functions of Peer Influence: A Summary and Synthesis of Recent Empirical Research." Journal of Research on Adolescence 31(4), 2021, pp. 889-907. DOI: 10.1111/jora.12606.

يكون مجرد نتاج لها؛ يتأثر بها ويستجيب لها ويشارك، داخل وسعه ويمدد الله، فيما يصير إليه.

ما الذي قد يكشفه الابتلاء؟

لا يمنحك نوع الابتلاء قائمة ثابتة بما «يعنيه». المال قد يكشف تعلقاً، وقد يفتح باب عطاء، وقد يضع الإنسان أمام مسؤولية معقدة. والفقد قد يكشف هشاشة، لكنه قبل ذلك خسارة حقيقية تستحق الحزن والرحمة.

لذلك تكون الأسئلة احتمالية لا اتهامية: ماذا حركت هذه الواقعة فيّ؟ هل جعلتني أرى اعتماداً لم أكن واعياً به؟ هل أحتاج إلى حد أو علاج أو توبة؟ وما الحق الذي يجب أن أحفظه وأنا متألم؟

وفي النعمة أسئلة كذلك: هل وسّعت قدرتي على الإحسان، أم زادتني استغناءً؟ هل بقي الشكر معنى في العمل، أم صار النجاح حجة للتعالي؟ قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35].

اختبار في الاتجاه، لا في تمثيل النقاء

لا يطلب منك الابتلاء أن لا تحزن أو تخاف أو تتعب. هذه استجابات بشرية، وقد تحتاج إلى رعاية، الذي يقع تحت مسؤوليتك هو ما تفعله داخل وسعك: هل تطلب الحق؟ هل تمنع الألم من أن يصير إدناً للظلم؟ هل تعود إذا انخرفت؟

الطريق ليس أن لا تسقط أبداً، بل أن لا تتخذ السقوط وجهة. وليس أن تبسم لكل وجع، بل أن تصدق في وصفه وتطلب ما يصلحه وتحفظ صلتك بالله على قدر استطاعتك.

الخير والشر كلاهما ميدان

النعمة والشدة كلاهما يفتحان مجالاً للفعل، لكنهما لا يضمنان نتيجة واحدة. قد يشكر إنسان في السعة ويطغى آخر، وقد يصبر إنسان في الشدة ويحتاج آخر إلى علاج قبل أن يستطيع أي مراجعة. لا نقيس إيمان الناس بسرعة استجاباتهم أو شكلها.

وعندما ينجح المؤمن في الصبر أو الشكر يكون ذلك خيراً له، لكن الخير ينشأ من إيمانه واستجابته ومدد الله، لا من أن الضرر صار خيراً في ذاته. بهذا نحفظ معنى الابتلاء من غير أن نحول المعاناة إلى شعار.

ويبقى سؤال الألم نفسه: إذا كان الاختبار مجالاً للفعل، فكيف تتعامل مع الخبرة التي قد تستهلك القدرة على الفعل؟ هنا ننقل من معنى الابتلاء العام إلى الألم بوصفه واقعاً بدنياً ونفسياً يحتاج إلى عناية.

القسم الرابع: الألم – واقع إنساني وإمكان للتكؤن

الألم ليس فكرة نحلها، بل خبرة حسية ووجدانية يعيشها الإنسان ببدنه ونفسه. وتعرّفه الأدبيات الطبية المعاصرة بوصفه تجربة شخصية تتأثر بعوامل بيولوجية ونفسية واجتماعية، وتؤكد أن تقرير الإنسان عن ألمه يجب أن يُحترم.¹

¹ International Association for the Study of Pain. "IASP Announces Revised Definition of Pain." 16 July 2020; Srinivasa N. Raja et al. "The Revised International Association for the Study of Pain Definition of Pain: Concepts, Challenges, and Compromises." PAIN 161(9), 2020, pp. 1976-1982. DOI: 10.1097/j.pain.0000000000001939.

وقد يؤدي الألم وظيفة إنذار: يدفعك إلى سحب يدك من النار، أو طلب العلاج، أو مراجعة وضع يؤذيكَ. لكن ليس كل ألم رسالة أخلاقية، وليس كل ألم ناتجاً عن تقصير. قد يكون مرضاً يحتاج إلى تشخيص، أو صدمة تحتاج إلى أمان وعلاج، أو ظلماً يحتاج إلى مقاومة.

الألم قد يفتح، لكنه لا يضمن

وقد يضغط المجتمع على المتألم ليعرض «قصة انتصار» قبل أن يلتئم. هذا الطلب قد يحوله إلى مثل لقوة لا يشعر بها. الصدق أرحم: بعض الأيام نجاة فقط، وبعضها فهم، وبعضها خطوة صغيرة إلى العلاج. وكلها يمكن أن تدخل في الطريق.

لا تقاس قيمة الإنسان بسرعة تعافيه. تختلف الأبدان والأعصاب والموارد والبيئات. وما يبدو لغيره فعلاً بسيطاً قد يتطلب منه جهداً هائلاً. الحساب بحسب الوسع يحفظ كرامة الساعي ويمنع المقارنات القاسية.

وإذا نتج من التجربة معنى، فلا يلزم أن يحو مرارتها. يمكن أن تقول: تعلمت، وكان الألم مؤلماً. ويمكن أن تشكر من أعانك وتظل تتمنى لو لم يقع الظلم. اجتماع المعنى والرفض ليس تناقضاً.

قد يوقظ الألم بصيرة أو رحمة أو صبراً. وقد يربك الإنسان ويستنزفه ويغلق بعض قدرته زمنًا. وما يسمى «النوب بعد الصدمة» إمكان يحققه بعض الناس في

ظروف معينة، لا نتيجة آلية لمجرد التعرض للشدة؛ وقد لا يطابق الشعور بالنمو تغيراً موضوعياً دائماً.¹

قال تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: 21]. تأتي الآية في سياق يميز المؤمن من الفاسق ويحذر من الإعراض، لا لتصف كل متألم. ويشرح «الميزان» و«الأمثل» فيها عذاباً دنيوياً تبقى معه فرصة الرجوع. ففتح الباب غير الدخول فيه: قد يتنبه الإنسان ويستجيب، وقد يصر على ما كان عليه.

وفي ضوء آية الضنك وآيات الهلع واستثناء المصلين، يقترح هذا الكتاب قراءة أخص: قد يندرج بعض الضيق الناشئ عن الإعراض واستبداد التعلق ضمن مصاديق «العذاب الأدنى» المنبّهة إلى الرجوع. ليس المقصود الحاجة الطبيعية، بل أن يصير ما تطلب منه الأمان مرجعاً يستبعد قوارك ويجدد خوفك وحرصك. ونسمي أثر ذلك في طريقة عيش النفس وتقديرها واستجابتها «ضيقة تكوينية»، لا اسماً لمرض. وهذا جمع تفسيري مقترح في تعيين المصدق، لا

¹ Patricia Frazier et al. "Does Self-Reported Posttraumatic Growth Reflect Genuine Positive Change?" *Psychological Science* 20(7), 2009, pp. 912-919.

DOI: 10.1111/j.1467-9280.2009.02381.x; Charlotte Henson, Didier Truchot, and Amy Canevello. "Factors that Hinder Post-Traumatic Growth: A Systematic Review."

L'Encephale 48(5), 2022, pp. 560-562. DOI: 10.1016/j.encep.2022.02.001.

استُخدما في نقد افتراض النمو الآلي بعد الصدمة والتمييز بين الشعور بالنمو والتغير الموضوعي المستمر.

تعيين صريح لهذا الضيق في الموضوعين المعتمدين من تفسير السجدة في «الميزان» و«الأمثل»¹.

ولا يجعل هذا الجمع كل ألم عذاباً. وليس كل تعذيب بالتعلقات تنبيهاً إلى الرجوع؛ فقد يقترن بالإملاء والاستدراج. وحتى حين يكون تنبيهاً، لا يضمن استجابة صاحبه. ولا يعين الشعور وحده أي هذه الأحوال فيك أو حكمة ما وقع لك. وقد تفتح المراجعة آية أو نصيحة أو نعمة؛ فإذا تبين لك خطأ، فالرجوع إلى الحق بالذكر والتوبة ورد الحقوق، لا مجرد البحث عن شعور أهدأ.

لذلك لا نقول: كل ما لا يقتلك يقويك. بعض ما لا يقتلك يجرحك، ويحتاج جرحه إلى زمن ورعاية. ولا نقول للمفجوع إن عليه أن يجد المعنى سريعاً. قد يبدأ إيمانه بأن يقول: أنا أثألم، ولا أفهم، لكنني لن أقطع طريقي إلى الله ولن أرفض العون.

الصبر ليس تعطيلاً لرفع الضرر. تداوى، وتطلب النصر، وتغادر البيئة المؤذية، وترد الحقوق، وتبكي، وتدعو بكشف الضرر. الصبر أن تحفظ وجهتك وأنت تفعل ذلك، وألا يدفعك الألم إلى ظلم نفسك أو غيرك أو اليأس من رحمة الله.

1 العذاب الأدنى وحدود الجمع التفسيري: الطباطبائي، «الميزان»، ج 16، تفسير السجدة: 21 ضمن الآيات 15-30، وتفسير الروم: 41، والأحزاب: 24، ومكارم الشيرازي وآخرون، «الأمثل»، تفسير السجدة: 21-22. وتضم إليها دلالة ضنك الإعراض في طه: 123-127، وشرح التعذيب بالتعلقات في «الميزان»، ج 9، تفسير التوبة: 55. لا يكفي الاشتراك في العذاب الديني لإثبات اتحاد المصايق؛ فقد يقترن التعذيب بالتعلقات بالإملاء والاستدراج. لذلك يبقى إدراج بعض ضيق الإعراض تحت «العذاب الأدنى» جمعاً تفسيرياً مقترحاً، لا تعييناً صريحاً لهذا المصداق في الموضوعين المعتمدين من تفسير السجدة في «الميزان» و«الأمثل»، ولا قاعدة لتشخيص معاناة الأفراد.

من الإدانة إلى العناية

إذا كان الألم بدنياً، فابدأ بالبدن ولا تختزله في «رسالة روحية». وإذا كان نفسياً، فاطلب فهماً وعلاجاً ولا تحمله وحدك باسم القوة. وإن تبين لك خطأ أو تعلق يزاحم حقاً تعرفه، فأصلحه من غير أن تجزم بأنه سبب ألمك، أو أن الله يعاقبك به. قد تعرف ما يحتاج إلى إصلاح، وتظل أسباب الألم غير واضحة.

المعنى لا يلغي الألم، والألم لا يضمن المعنى. لكن باب الاستجابة يبقى مفتوحاً: سبب يفهم، وعلاج يُطلب، ويد تمتد، وتوبة تصحح، ومدد يثبت. وما يتكوّن فيك ليس الألم نفسه، بل الكيفية التي واجهته بها وما رسخ من هذه المواجهة. وإن شئت صورة تقرب المعنى: ليس الألم إزميلاً يختك من تلقاء نفسه؛ وقد تساعد الاستجابة الواعية — مع العلاج والعون والمدد — على أن ينشأ من التجربة صبر أو حلم أو رحمة. وقد يبقى الجرح محتاجاً إلى زمن وعلاج من غير أن يكون ذلك إخفاقاً أخلاقياً، فالأثر التكويني لا يصنعه الألم وحده، ولا يختزل في إرادة المبتلى.

وهنا يظهر القانون الذي يربط هذا الفصل بما بعده: المقاومة تستدعي قوى كامنة. الشدة لا تخلق الصبر من العدم، لكنها تمنحك موضعاً تختاره فيه. ولا تصبح القوة صفة وجودية إلا حين نكرر الاستجابة وتستقر في النفس.

القسم الخامس: الشيطان – عدو يخدم التكوّن رغماً عنه

الشيطان عدو حقيقي، يقصد الإغواء والضرر، ويزين ويعد ويخوف. لكنه ليس أصل الشر، ولا قوة تقابل الله، ولا خالقاً للشهوة أو الغضب أو الحسد في النفس. يجد ميولاً وقابليات، ويحاول أن يوجهها بعيداً عن الحق.

وقد نلخص القرآن حد سلطانه في قوله على لسانه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكَ فَاسْتَجَبْتَ لِيَ﴾ [إبراهيم: 22]. تأمل طرفي هذا الاعتراف: دعوة منه، واستجابة منك؛ يدعو ولا يجبر. لكن الاستجابة التي تتكرر تفتح له طريقاً أوسع، وتغذي في النفس عادة وشاكلة تجعل الباطل أقرب.

كيف يخدم عدوك تكوّنك؟

تظهر المناعة الروحية في سرعة التعرف إلى النمط: وعد يلهم ثم يترك فراغاً، أو خوف يضحّم الخسارة، أو تبرير يبدأ صغيراً. في أول مرة قد تحتاج إلى صراع طويل، ثم تتكوّن فيك خبرة تلتقط العلامة قبل أن تستكمل القصة.

لكن القوة لا تعني الثقة المفرطة. من عرف باب ضعفه لا يقترب منه ليختبر مناعته، كما لا يعرض الإنسان بدنه للعدوى ليثبت سلامته. من الحكمة أن يغلق الباب، ويغير البيئة، ويستعين، ويستعيد.

والشرير قد يكون سبباً في يقطتك، لكنه لا يكتسب بذلك حقاً عليك ولا فضيلة. واجبك أن تمنعه إن استطعت، وتحمي غيرك، ثم تحرس قلبك من أن يجعل مقاومة الظلم نسخة أخرى من الظلم.

وجود الشيطان أحد موارد الابتلاء، ووسوسته مقاومة تكوينية تستنفر في الإنسان قوى التمييز والإرادة والذكر والتوكل. هو يقصد الإغواء، لكن الله يجعل مقاومته — لا طاعته — مادةً للمجاهدة والترقي. فكل مرة تكشف فيها الخداع وترفضه، تقوى في النفس قدرةً على التعرف إليه والثبات أمامه.¹

وهذا القانون لا يخص الشيطان وحده. الشرير من البشر قد يقصد إذلالك، لكن مقاومته قد تستخرج فيك شجاعة وعدلاً. والمصيبة لا تقصد شيئاً، لكن مواجهتها قد تستخرج صبراً ورحمة. لا يصبح الشر خيراً، ولا المؤذي معلماً محموداً؛ إنما يستطيع الله أن ينتزع من ضغطه ثمرة لم يقصدها.

مجاز «لقاح الروح»

يمكن تقريب المعنى بمجاز اللقاح: يتعلم الجهاز المناعي التعرف إلى الخطر وتكوين ذاكرة دفاعية بعد تعرض منضبط لمستضد أو تعليماته. واللقاحات ليست كلها «نسخة ضعيفة من المرض»؛ فقد تستخدم كأثماً موهناً أو معطّلاً، أو جزءاً منه، أو مادة وراثية تعلم الجهاز المناعي التعرف إليه.²

¹ مرتضى مطهري، العدل الإلهي، مباحث الشيطان وفوائد الشر والشدائد، في أن الشر النسبي قد يصير ميداناً لخروج القابليات إلى الفعل، مع بقاء قصد الشرير وفعله مذمومين.

² World Health Organization. "How do vaccines work?" 25 February 2025.

استُخدم المصدر لبيان أن اللقاحات قد تستخدم كأثماً موهناً أو معطّلاً، أو جزءاً منه، أو تعليمات وراثية، وأنها تكون استجابة وذاكرة مناعية. والاستعمال في المتن مجاز وظيفي لا برهان ميتافيزيقي.

وجه الشبه هنا محدود: المناعة الروحية تُكوّن بمقاومة الوسوسة، لا بطاعتها. كل مرة تنتبه فيها إلى الخداع، وتستعيد بالله، وتختار الحق، يصبح التمييز أسرع والإرادة أصلب. أما الاستجابة للوسوسة فتغذي المرض بدل أن تبني المناعة.

ولذلك لا تكون الذنوب «جرعات مطلوبة» للنمو. الذنب انحراف، وإن وقع فتح باب التوبة. ولا يحتاج الإنسان إلى المعصية كي يتقوى؛ يكفي أن يواجه الدعوة إليها ويختار غيرها. وإن زل، فالمناعة تبني في صدق الرجوع والإصلاح، لا في الزلة نفسها.

النفس والشيطان والعادة والبيئة

لا تنسب كل خاطر سيئ إلى الشيطان وحده. قد يأتي من هوى النفس، أو عادة ترسخت، أو بيئة تغذيها، وقد تداخل الأبواب. والتمييز مهم؛ لأن العلاج يختلف: وسوسة تُقطع بالاستعاذة والإعراض، وعادة تحتاج إلى تغيير سياق وتكرار جديد، وجرح يحتاج إلى فهم وعلاج، وبيئة تحتاج إلى مسافة أو بديل.

وجود الشيطان أحد موارد الابتلاء، لا أنه القائم بالامتحان أو المساعد المحمود. قصده مذموم، وعداوته باقية، واتخاذها عدواً من مقتضى العبودية. فلا تمنحه قدرةً ليست له، ولا تستهين بدعوته، ولا تعفي نفسك من مسؤولية الاستجابة. وإذا خرج الإنسان من مقاومته أقوى، فالخير من هداية الله ومدمده ومن استجابة العبد، لا من خير كامن في الوسوسة نفسها.

وهنا تلتقي الوسوسة بالشاكلة: الدعوة تعرض، والاستجابة تختار، والتكرار يرسخ. وكلما انكشف هذا المسار مبكراً، أمكن للمحاسبة والتوبة أن تقطعا أثره قبل أن يصير طبعاً.

لكن، إن كانت هذه هي طبيعة النظام، يبقى سؤال في غاية الأهمية: هل أنت — كإنسان — مجرد متلق لما يقدره الله؟ هل دورك محصور في الاستجابة لما ينزل؟ أم هناك موضع لإرادتك في تغيير ما ينزل بك؟ وإذا كان كل شيء بقدر، فأين موضع الدعاء؟

هذه الأسئلة تفتح المبحث القادم: الدعاء داخل القدر.

القسم السادس: الدعاء داخل القدر

إذا كانت الأسباب حقيقية، فأين يقع الدعاء؟ يقع داخل النظام لا خارجه. الدعاء فعل من أفعال العبد، وسبب شرعي من الأسباب، وهو نفسه واقع بعلم الله وقدره. فلا يقف الإنسان خارج القدر ليعدله، ولا يصير الدعاء مجرد أثر نفسي بلا صلة بالتدبير.

رب الأسباب غير محكوم بها

أجرى الله العالم في العادة على سنن وأسباب، لكنه ليس محكوماً بها ولا مفتقراً إليها. وقد يجري أمراً خارقاً للعادة، ويوجب الدعاء بأسباب مألوفة أو غير مألوفة، ولا نملك أن نحصر فعله في صورة واحدة.

ولهذا لا نقول إن الله لا يفعل إلا بإضافة «قوة أعلى» إلى قانون قائم، ولا نفسر ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] بوصفها حيلة داخل منظومة مستقلة. الأسباب كلها قائمة به، والمعتاد والخارق كلاهما تحت إرادته وحكمته.

الدعاء عبودية وسبب

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].
الدعاء قبل أن يكون طلباً لنتيجة هو إظهار الافتقار، وتجديد الصلة، واعتراف بأن الأسباب لا تستقل.

وتأمل نظم الآية: لم يأت الجواب بصيغة «فقل لهم إني قريب»؛ جاء مباشراً: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾. في هذا النظم ما يردّ الدعاء إلى أصله: ليس مجرد وسيلة للحصول على المطلوب، بل مقام قرب وافتقار. يسأل العبد عن ربه، فيجيبه الله بالقرب قبل أن يذكر الإجابة. ولذلك يتحقق من الدعاء خيره الأول حتى قبل ظهور أثره الخارجي: أن يعود القلب إلى من بيده الأمر.

وقد يغير الدعاء في الداعي: يوضح حاجته، ويجمع قلبه، ويهديه إلى قرار، أو يفتح له باب الصبر. وقد يترتب عليه أثر في الخارج بإرادة الله: تيسير سبب، أو صرف مانع، أو شفاء، أو فتح لم يكن في الحساب. لكن الاستجابة لا تساوي دائماً عين المطلوب في الوقت والصورة اللذين اختارهما الإنسان.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يرد القضاء إلا الدعاء»¹. وليس معناه أن الدعاء يقف خارج القدر ثم يغيّره؛ فالدعاء نفسه من الأسباب التي جعلها الله داخل قضائه. وقد يكون من أثره دفع بلاء أو تغيير مجراه، كما

¹ رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل الطبرسي، «مكارم الأخلاق»، ج1، ص268، باب «فيما جاء في فضل الدعاء»: «قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا يرد القضاء إلا الدعاء». وانظر: الطباطبائي، «الميزان في تفسير القرآن»، تفسير البقرة: 186، في بيان أن الدعاء من الأسباب الداخلة في القدر، لا فعلاً خارجاً عنه.

يكون من أثره تغيير الداعي نفسه. لا نملك خريطة الغيب، لكننا نعرف أن الله أمر بالدعاء وجعل له أثراً، وأن فعل العبد لا يخرج عن علمه وتقديره.

لا نحتاج إلى تصوير القدر «شبكة احتمالات» يتحكم الدعاء في الانتقال بينها. يكفي أن نعرف أن اختيار الإنسان ودعائه وأخذَه بالأسباب كلها داخلية في القدر، وأن الله علمها وأجراها من غير أن يجبره عليها.

الدعاء لا يلغي السبب

يدعو المريض ويتداوى، ويطلب المظلوم النصرة ويجمع الدليل، ويدعو طالب الرزق ويتعلم ويعمل. ترك السبب الممكن ثم مطالبة الدعاء أن يحل محله ليس توكلاً، كما أن الاعتماد على السبب ونسيان ربه ليس فهماً كاملاً.

وقد تكون الإجابة أن يفتح الله باباً، أو يمنح قوةً على حمل ما لم يزل، أو يصرف ضرراً لا تعلمه. لا نجزم بصورة معينة، ولا نحمّل الداعي ذنب عدم وقوع ما طلب، كأن الصديق عقد يوجب النتيجة التي يريد.

التوكل: عمل القلب مع عمل الجوارح

التوكل اعتماد القلب على الله مع بذل السبب. تعمل بإتقان لأن العمل أمانة، ثم لا تجعل النتيجة ملكاً لقدرك. وإذا خابت الخطة، تراجع ما تستطيع وتتعلم، من غير أن تفسر كل خيبة بأنها رفض إلهي أو كل نجاح بأنه رضا.

بهذا يتحرر الإنسان من ثقلين: جبر يجعله متلقياً بلا فعل، ووهم سيطرة يجعله مسؤولاً عن الكون كله. هو فاعل حقيقي غير مستقل، ودعاؤه وعمله وجهان لعبوديته.

ومن هنا نعود إلى الكدح: ما يجمع الابتلاء والألم والبيئة والوسوسة والدعاء ليس تفسيراً واحداً لكل حادثة؛ بل موقف العبد الذي يبذل ويقاوم ويرجع ويستعين، وهو يعرف أن طريقه إلى الله يمر داخل الأسباب لا خارجها.

القسم السابع: خاتمة الفصل

ها قد بلغنا نهاية هذا الفصل. عرفنا في الفصل الرابع أن العالم يجري بسنن وأسباب حقيقية غير مستقلة، وأن القابليات والمعطيات متفاوتة، وأن الشر ليس أصلاً مستقلاً مع بقاء الألم والضرر حقيقيين. ورأينا هنا الإنسان داخل هذا العالم: في كبد، وابتلاء متعدد المعاني، وبيئة تيسر بعض المسارات أو تثقلها وقد تضيق الاختيار بحسب الواقعة، وألم قد يفتح إمكاناً للنمو، وشيطان تقوي مقاومته المناعة الروحية، وقدر لا يلغي الدعاء والعمل.

وكل هذا فهم نظري عن النظام الذي وضعت فيه. لكن المعرفة وحدها لا تحرك. السؤال الذي ينتظرك الآن، بعد كل هذا، هو: ماذا تفعل أنت بهذا الفهم؟ كيف تترجمه إلى حركة؟

الجواب يختزله القرآن في كلمة واحدة تنطوي على رحلة وجود كاملة: الكدح. وفي مشهد واحد يكشف لك ما يجري في الإنسان حين يلتقي القدر بإرادته.

الكدح - حتمية المسار ومسؤولية الاستجابة

مر بك الكدح في فصول سابقة بوصفه الحركة الوجودية الملازمة للإنسان عبر الزمن نحو لقاء الله ومآله عنده. وهو هنا يتنزل على موضعه من هذا الفصل: فالكدح حتمية المسار، أما جوابك العملي داخله فهو استجابتك التي قد تتجه إلى القرب أو البعد. وقد اختزل القرآن هذه الحركة كلها في آية واحدة:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾

[الانشقاق: 6]

الإنسان كادح بحكم مساره إلى اللقاء. وقد يصاحب الكدح جهدٌ ومشقةٌ، لكنه لا يُعرّف بهما؛ فالراحة والنعمة والانتظار كذلك تقع داخل المسار وتفتح مجال الاستجابة. والكدح - كما يكشف القرآن - ليس في الفراغ، ولا حول الذات، بل ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾. والفرق بين استجابة تزكي الإنسان وأخرى تستنزفه ليس مقدار الجهد، بل وجهة الاستجابة وما يترسخ منها.

وهنا تلتقي خيوط الفصل: الابتلاء يكشف، والألم يستدعي استجابة، والبيئة تغذي أو تعوق، والوسوسة تعرض ولا تُكره، والدعاء يربط السعي برب الأسباب. وتصير استجاباتك في هذه المواطن استجابات واعية في طريق القرب إذا صحت الوجهة والوسيلة وحُفظت الحقوق، وقد تتحول إلى استنزاف إذا غاب المعنى أو ترك الضرر بلا علاج.

ولأن الكدح ينتهي إلى لقاء، فأنت تلقى الله بما صارت إليه نفسك، لا بمجرد ما جمعته. لكن صورتك الأخروية لا تُختزل في «محصلة جهد» مستقل؛ فهي

ثمرة سعي حقيقي تحيط به رحمة الله وهدايته وقبوله، ويحاسب فيه العبد بحسب وسعه.

مشهد السفينة - حيث يولد الصدق

ولأن المفاهيم تتجلى في المشاهد أكثر مما تتجلى في الكلمات، تأمل مشهداً يرسمه القرآن في غاية الدقة، يجمع لك في صورة واحدة ما رأيناه في هذا الفصل: الكبد، والابتلاء، والألم، والدعاء.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنَ بَهِمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَأَن نُّنَجِّيَنَّهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ

الشَّاكِرِينَ﴾

[يونس: 22]

تأمل في حركة المشهد في أربعة أطوار:

أولاً، السير الهانئ. ﴿جَرْنَ بَهِمٍ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾. هذه حياة الرخاء. كل شيء يجري كما ينبغي، ولا يذكر المشهد لهم دعاءً في هذه الحال؛ فلافتقار لم يظهر في الصورة إلا حين ضاقت الأسباب.

ثانياً، الإحاطة بالموج. ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾. تنقلب الحال فجأة. وتأمل في ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾: لا مهرب، ولا اتجاه يسلمون

منه. كل السند الذي كانوا يستندون إليه — السفينة والريح والخبرة والمهارة — ينهار في لحظة واحدة.

ثالثاً، الانكشاف. ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾. حين يستيقن الإنسان أنه لا مخرج، ينكشف ما كان يختبئ في عمقه. ما كان يستند إليه — المال، القوة، العلاقات، التدبير — كله يسقط دفعة واحدة. لا يبقى إلا شيء واحد.

رابعاً، الدعاء بصدق كامل. ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. وتأمل في كلمة ﴿مُخْلِصِينَ﴾. قد يدعو الإنسان في الرخاء، لكن قلبه يبقى متعلقاً بأسباب شتى؛ أما هنا، حين سقطت الأسباب من الوعي، ظهر الافتقار خالصاً، ولم يبق في الصورة إلا الله.

يكشف المشهد كيف تسقط بعض أوهام الاستقلال حين تضيق الأسباب، فيعود القلب إلى الله بإخلاص. ولا يعني ذلك أن الإنسان لا يصدق إلا في الكارثة، أو أن الرخاء يمنع القرب؛ المطلوب أن يحمل في السعة افتقاره نفسه الذي ينكشف له في الشدة، وألا ينتظر الموج حتى يعرف رب السفينة.

خاتمة الفصل

بلغنا نهاية الفصل وقد ظهر معنى الاحتكاك: ليس كل ما يعاكسك خيراً في ذاته، ولا كل ألم تصميمًا خاصاً تعرف سره. لكن المواجهة تفتح ميداناً حقيقياً للاختيار، وقد يستخرج الله من مقاومة الشر والصبر على الشدة والعمل على الإصلاح صفات لم تكن لتظهر في الراحة وحدها.

لا يلغي هذا الفهم وجوب العلاج أو مقاومة الظلم، ولا يحوّل الحزن إلى نقص في الإيمان. إنه يمنع فقط أن تسلم للشر بالكلمة الأخيرة، وأن تظن أن ماضيك أو بيتك أو وسوسة عدوك صار قدراً مغلقاً. ما دام باب الاختيار والتوبة والمدد مفتوحاً، يبقى التكوّن ممكناً.

والغاية أن يتكوّن الإنسان بإرادته داخل ما أقدره الله عليه، وبسبق هدايته ومدده وتوفيقه، لا أن يُجبر على الكمال ولا أن يخلق نفسه استقلالاً. يختار، ويعمل، ويطلب العون، وتسهم استجاباته المتكررة في تشكيل الصورة التي تصير إليها نفسه.

فالصفات التي تكتسبها في ميدان الاحتكاك — صبرك، وصدقك، ويقينك، وحلمك — ليست زينة تتركها عند باب القبر. إذا رسخت صارت جزءاً من صورتك الوجودية المكتسبة. هذه هي قصة الذات الخالدة: الشخص نفسه، لا ما جمع من أشياء، يحمل ما تكوّن فيه وما أصبح عليه من معرفة ووجهة وملكات. والاحتكاك هو الميدان الذي تستدعى فيه هذه القابليات إلى الفعل.

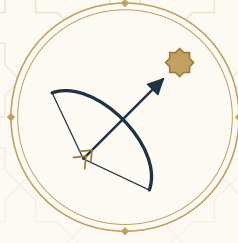
لكن المعرفة بالنظام — مهما اتسعت — لا تكفي وحدها. السؤال الذي يفتحه ما تلونه في هذا الفصل هو: كيف يتحرك الإنسان فعلاً داخل هذا النظام؟ ما الذي يحول الفهم إلى سلوك، والمعرفة إلى كيان؟ ما الذي يجعل الإنسان ينتقل من قارئ للقانون إلى ساع في طريقه إلى الله؟

الجواب يفتحه الفصل القادم: صناعة الإرادة. هناك نقرأ الإرادة بوصفها مفصل الاختيار الذي يصل المعرفة بالفعل، والصدق الذاتي بوصفه مساراً تتصادق فيه جهات النفس تحت الحق والفطرة، وتضييق الفجوة بين ما تعرفه

وما تعيشه من آلياته. ثم يأتي فصل حركة الجوهر ليفسر كيف يتحول التكرار إلى هيئة وشاكلة.

وقفة تأمل

قبل أن تطوي الفصل، استحضر ألماً أو مقاومة تواجهك. لا تفترض أنك تعرف رسالتها الخفية، ولا تطلب من نفسك أن تحبها. اسأل بدلاً من ذلك: ما السبب الذي أستطيع فهمه؟ ما الضرر الذي ينبغي دفعه؟ ما العون الذي أحتاجه؟ وأي استجابة أريد أن أكررها حتى تصير في نفسي صبراً أو عدلاً أو توكلاً؟



الفصل السادس

صناعة الإرادة

تمهيد - من المعرفة إلى الحركة

بعد أن عرفنا جهات الإنسان وسنن العالم ومواضع الاحتكاك، يبقى سؤال الحركة: ما الذي يصل المعرفة بالفعل؟ قد يرى الإنسان الحق ويشعر بجماله، ثم لا يقوم به. وقد يتحمس ساعة ثم يعود إلى عاداته. فالمعرفة وحدها تنير الطريق من بعيد ولا تحرك القدم، والشعور وحده يهز القلب ولا ينشئ قراراً؛ وبين الإدراك والتحقيق تقع الإرادة.

الإرادة ليست حقيقة الإنسان كلها. فالإنسان نفس واحدة تُقرأ من جهات الجسد والقلب والعقل والروح، وتحمل تاريخاً وعلاقات ومعطيات. لكنها مفصل الاختيار: بها تحسم النفس فعلاً ممكناً، وتحول ما حضر من معرفة وقيمة ودافع ونية إلى توجه عملي ينسب إليها.

ولا تعمل الإرادة وحدها. يضعفها الإرهاق، ويقويها المعنى، وتعينها البيئة، ويصححها العقل، ويحركها القلب، ويهديها الوحي. لذلك لا نحولها إلى بطل مستقل، ولا نجعل ضعفها في موقف حكماً نهائياً على الإنسان.

وحيث تكرر الاختيارات، لا تبقى الإرادة لحظة منفصلة؛ تفتح طريقاً في النفس. الفعل الذي كان ثقيلاً قد يصير أيسر، والعادة التي كانت حاكمة قد تضعف. بهذا تصبح الإرادة جسراً من المعرفة إلى الشاكلة.

لكن قبل أن نسأل كيف تقوى الإرادة، ينبغي أن نعرف حدها: لا تخلق القدرة من عدم، ولا تفرض النتيجة على العالم، ولا تستغني عن الله. تختار وتبذل السبب داخل ما وهب لها، وتستعين في كل ذلك.

الإرادة: مفصل الاختيار

ليست الإرادة اندفاعاً حماساً. قد يريد الإنسان الخير في لحظة ثم ينهزم أمام أول تعب، لأن الرغبة لم تتحول إلى قرار ولا القرار إلى نظام. تقوى الإرادة حين تكرر النفس الاختيار في التفاصيل، وتقلل الاحتكاك الذي يستنزفها، وتربط الفعل بمعنى أكبر من المزاج.

ومن أدواتها أن تسبق الموقف بقرار. من يعرف أن هاتفه يسرق انتباهه لا ينتظر كل مرة معركة بطولية؛ يبعده. ومن يعرف أن الغضب يعميه، يتعلم تأخير الرد. تنظيم البيئة لا ينتقص من فضيلة الإرادة، بل يمنحها فرصة أن تعمل في موضعها.

والإرادة لا تنجح دائماً. قد تنقطع عادة جديدة، أو تتراجع النفس بعد تقدم. المهم أن لا يحول الإنسان التعثر إلى هوية. يعود إلى السبب، ويعدل الخطأ، ويستعين، ويبدأ من النقطة التي يملكها.

قوة الإرادة نفسها تتأثر بالبدن والمعنى والصحة. التعب الطويل يضعف الاختيار، والغاية الغامضة تشتت القرار، والبيئة المعاكسة تستهلك الطاقة. لذلك يكون بناء الإرادة عملاً متكاملًا، لا اتهامًا أخلاقياً لمن عجز في موضع.

تأمل في الكون من حولك. يعرض القرآن الموجودات خاضعةً لله، كلٌ بحسب خلقه ونظامه: الشمس والقمر في أفلاكهما، والجماد في السنن التي أقامه الله عليهما، والملائكة في طاعتها وتسبيحها، والحيوان في طبائعه وهداياته. أما الإنسان فيقع عليه، إلى جانب خضوعه التكويني، تكليفٌ أخلاقي تظهر فيه المعرفة والقصد والاختيار:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ
مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن
مُّكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

[الحج: 18]

وتوقف عند نظم الآية: عُرِضَت المخلوقات كلها بصيغة واحدة، فلما جاء ذكر الناس انقسم الذكرَ شطرين: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ و﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ وفي هذا الانقسام يظهر موضع التكليف. تجمع الآية بين السجود الكوني العام

وبين موقف الإنسان المكلف. فالموجودات خاضعة لله في أصل وجودها وسنّها، أما الإنسان فيستطيع أن يوافق بعمله الاختياري حقيقة خضوعه، أو يعصيا فيستحق الحساب. لا يلزم من ذلك أن تنفي عن كل مخلوق غير الإنسان أي نوع من الإدراك أو الاختيار؛ المقصود هنا أن مسؤولية الإنسان الأخلاقية تقوم على ما أُعطي من علم وقصد وقدرة.

الإنسان يختلف عن كثير من الموجودات في أن أفعاله الأخلاقية تقع داخل مجال من الوعي والاختيار. لا يعني ذلك أن إرادته مطلقة، ولا أنه الوحيد في الوجود الذي يملك أي نوع من الاختيار؛ إنما يعني أن التكليف والمسؤولية يرتبطان بما بلغه وفهمه، وما يستطيع فعله أو تركه داخل وسعه.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10]. أرى الإنسان الطريقان، ثم نُسب الفلاح والخيبة إلى تزكيته وتدسيته؛ فالبيان لا يلغي الاختيار، والاختيار لا يستقل عن الهداية.

ومن هنا نفهم الأمانة: قدرة ومسؤولية، لا امتيازاً خالصاً. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ... وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: 72]. لا نحصر معنى الآية في الإرادة وحدها، لكن الاختيار والتكليف من أبرز ما يكشف ثقلها.

ولا نصف علاقة الإنسان بالله بلغة «الشبه في الاختيار». الله خالق الإرادة والقدرة، لا يشبه شيء، والإنسان عبد مخلوق ذو فعل حقيقي في مرتبته. امتياز الإنسان الأخلاقي ليس أنه يملك إرادة تشبه إرادة الله، بل أنه يُبتلى بالاختيار ويُسأل عن استعمال ما وهب.

ولم يُعط الإنسان كماله الأخلاقي جاهزاً؛ أُعطي فطرة وقابليات وهداية ومجالاً للعمل. ثم يسهم باختياراته وأعماله في تشكيل نفسه، ويخرج من القوة إلى الفعل درجة بعد درجة، في إطار السنن وبالمدد الإلهي.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الحاثية: 13]. والتسخير مسؤولية: ما تحت يدك ميدان أمانة، لا مادة مطلقة لرغبتك. بالمال والعلم والوقت والعلاقة يظهر ما تختاره وما يترسخ فيك.

والأرض ليست مجرد «مصنع» يقابل الجنة؛ إنها دار عمل وابتلاء، والجنة دار جزاء. في الأرض نتكشف الإرادة وسط الرغبة والخوف والبيئة والقدرة المحدودة، ولذلك تكون الأعمال اختياراً لا حركة آلية.

وقد يرفع الاختيار الصادق الإنسان، ويهوي به الاختيار الفاسد. لكننا لا نقارن عبادته بعبادة الملائكة على إطلاق لا يقوم عليه نص؛ يكفيننا أن نقول إن طاعة الإنسان تكتسب معناها الأخلاقي من علمه وقصده ومجاهدته ضمن ما أقدره الله عليه.

ومن هنا يأتي ميزان السعي: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النجم: 39-40). قف عند الحصر في النظم: لم يقل «ما جمع له» ولا «ما وهب»، بل ﴿إِلَّا مَا سَعَى﴾. ولا يعني الحصر أن كل فضل أو ثمرة من صنع الإنسان، بل يقرر مسؤوليته عن سعيه، وأنه لا يملك أن يحتج بسعي غيره بدلاً منه.

السعي فعل منك حقيقة، لكنه ليس مستقلاً: القدرة والفرصة والهداية والثبات كلها من الله. والنتيجة قد تتجاوز قدرتك أو تخالف تصورك، لذلك تجمع الفاتحة بين الفعل والاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

الإرادة إذن هي حسم النفس لفعل ممكن والتوجه إلى إيقاعه. وهي سبب حقيقي في الفعل، لكنها لا تفرض الواقع ولا تخلق القابلية والبدائل والنتيجة. تقوى بالمعنى، وبالعادة الصالحة، وبالبيئة المعينة، وبلاستعانة، وتعمل داخل شبكة الأسباب والوسع.

وعندما تتجه الإرادة إلى الحق، يبقى سؤال أدق: هل تريد ما تقول إنك تريده؟ وهل يحمل فعلك ما تعرفه؟ هنا ننقل من قوة الاختيار إلى صدقه.

وحتى معرفتك بالله وهدايتك إليه نعمة سابقة على قرارك. في دعاء أبي حمزة الثمالي: «بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت»¹. وتأمل تسلسل الدعاء: «بك عرفتك» لا بقدرتي، «وأنت دللتني عليك» لا بحيلتي، «ولولا أنت لم أدر ما أنت»؛ حتى الإرادة التي تتجه بها إليه عطاء منه. ولذلك كان أهل القرب كلما اقتربوا أشد شعوراً بفضل الله لا بفضل أنفسهم. ولا تحو هذه السابقة اختيارك؛ تكشف أنه اختيار عبد قائم بعطاء ربه.

وقد تكون للفساد إرادة قوية في التنظيم والصبر على غايته. فقوة الإرادة كمال وجودي جزئي يزيد قدرة الإنسان على الحسم والثبات والفعل، أما صدق

¹ دعاء أبي حمزة الثمالي، أورده السيد ابن طاووس في «إقبال الأعمال»، ضمن أعمال أسرار شهر رمضان: «بك عرفتك، وأنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدر ما أنت». وتختلف أرقام الصفحة باختلاف الطباعات.

الإرادة فيتعلق بوجهتها: هل تعمل في خدمة الحق والعبودية أم في خدمة الهوى والاستكبار؟ القوة تجيب: كم تستطيع أن تثبت؟ والصدق يجيب: في أي اتجاه تثبت؟ ومن ثم لا تكون قوة الإرادة فضيلة تامة إلا إذا انتظمت في وجهة صحيحة.

الإرادة المتصلة بالله لا تعني أنها لا تتعب أو تنهار نفسياً؛ المؤمن بشر. معناها أنه لا يتعامل مع ضعفه كأنه انقطاع عن المدد، ولا مع قوته كأنها ملك خالص له. إذا عجز طلب العون، وإذا زل تاب، وإذا نجح شكر.

الصدق الذاتي: تصادق جهات النفس تحت الحق والفترة

قد يعرف الإنسان الحق ثم يعيش بعيداً عنه. يقول معنى لا يحمله فعله، أو يعلن غاية بينما تقوده عاداته إلى غيرها، أو يرى عيباً في نفسه ثم يكسوه بأعذار حتى ينسى اسمه. هذه المسافة هي فجوة يكشفها الصدق الذاتي ويعمل على تضيقها؛ فتضييق الفجوات من آلياته ونتائجها، لا تعريفه الكامل. ولا قيمة معيارية للاتساق إلا تحت مرجعية الحق ومقتضى الفترة كما يبينه الوحي ويميزه العقل.

الصدق الذاتي مسار تكويني متدرج تتصادق فيه جهات النفس الأربع وتآلف تحت مرجعية الحق ومقتضى الفترة: يفهم العقل الحق ويميزه، ويقبله القلب بما فيه من محبة ونية، وتجه الروح إلى الله وغاية العبودية، ويجسده الإنسان ببدنه في القول والعمل. والإرادة فعل النفس الحاسم الذي يربط هذه الجهات، وليست بعداً إضافياً؛ أما الخيال والشاكلة وآثار الفعل فهي مواطن

كشف أو عناصر مؤثرة في المسار. ويتربخ هذا التصادق بالتزكية، بما تشمل من مواجهة النفس وكشف الفجوات والمحاسبة والتوبة والإصلاح داخل الوسع. وهو مسار متنامٍ، لا ادعاء كمال.

ولا يكفي «الانسجام الداخلي» وحده؛ فقد ينسجم إنسان حول غاية فاسدة، ويكون منظماً في ظلمه. «الذاتي يحدد محل الصدق، لا مصدر الحقيقة»؛ فرجع الصدق هو الحق، لا مجرد ما تجده في داخلك. وفي قراءة هذا الكتاب، يبين تصادق الجهات جانباً داخلياً من الوفاء بالميثاق: أن يوافق قبولك وقصدك وعملك ما عرفت من مقتضى ربوبية الله وعبوديتك له. ويؤيد صلة الصدق بالوفاء قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23، موضع الشاهد]. فالصدق الذاتي يفسر جانباً مركزياً من الاستقامة، ولا يستوعبها وحده أو يغني عن سائر قوانين النشأة.

والشعور في هذا التعريف لا يعني كل انفعال عابر. قد يحزن الصادق، ويخاف الشجاع، ويجد العابد فتوراً. المقصود الاتجاه الوجداني الذي تثبناه النفس وتغذيه: ما تحبه وترضاه وتتفر منه وتستقر عليه. الصدق لا يطلب منك إنكار مشاعرك، بل الاعتراف بها وتربيتها.

وقد يكون للتعب الداخلي أسباب بدنية أو نفسية أو اجتماعية؛ فلا تستدل من القلق وحده على فجوة أخلاقية. وليست الفجوات سواء: قد تعرف الحق وتجه إليه، وتظل عادة قديمة ثقيلة؛ وهذا تأخر تكويني. وقد يمنعك مرض أو إكراه أو عائق حقيقي؛ وهذا قيد واقعي. وقد تعرف وتقدر ثم تخالف وتحمي المخالفة بالتبرير؛ وهنا تكون الفجوة متبناة. وقد تتداخل هذه الأحوال، فتحتاج إلى

فهم وعون. السؤال ليس: هل تأملت أو تعثرت؟ بل: كيف تستجيب لما تبين لك، وما الذي تستطيع إصلاحه؟

طريق الصدق: كشف، ثم قرار، ثم تكرار

أصعب الأفعنة ما كان يحمل جزءاً من الحقيقة. قد تكون حريصاً على الجودة، لكن الحرص يخفي خوفاً من نقد الناس. وقد تكون خادماً، لكن الخدمة تغذي حاجتك إلى أن لا يرفضك أحد. الصدق لا يبطل الخير، بل ينقيه من الدافع الذي يستعبده.

وقد تحتاج إلى مرآة خارجية؛ لأن النفس لا ترى كل حيلها. ناصح أمين، أو معالج، أو عالم، أو صديق يعرفك ولا يخاف منك. قبول التغذية الراجعة ليس تسليماً لآراء الناس، بل اختباراً لصورتك على ضوء أثرها في الواقع.

والصدق مع النفس لا يعني بث كل ما في داخلك للناس. بعض الخواطر تُستر وتُعالج، وبعض الأسرار أمانة. المقصود أن لا تكذب على نفسك أو على الله، وأن لا يكون ستر العيب ذريعة لترك إصلاحه.

وكلما اقترب القول من العمل، تحررت طاقة. لم تعد تحتاج إلى حفظ روايتين: ما تعيشه وما تعرضه. ولذلك يكون الصدق قوة قبل أن يكون راحة؛ يجمع النفس على حقيقة واحدة يمكن أن تبدأ منها.

يبدأ الكشف بتبين حق أو موضع يحتاج إلى إصلاح؛ فقد تثبتت خيراً تثبته أو خطأً تصححه. وقد تنبهك آية أو نصيحة أو تجربة، لكن التنبيه ليس هو تبين الحقيقة ببيان وقرائن. وقد يجتمع التنبيه والبيان في الآية أو النصيحة نفسها.

فالكشف هنا ليس كشفاً غيبياً، ولا حكماً يصنعه الشعور. إذا تبين الدافع، فلا تسمّ الحسد حرصاً على العدل، ولا طلب المدح رسالة، ولا تحكم على نفسك بما لم يتبين لك.

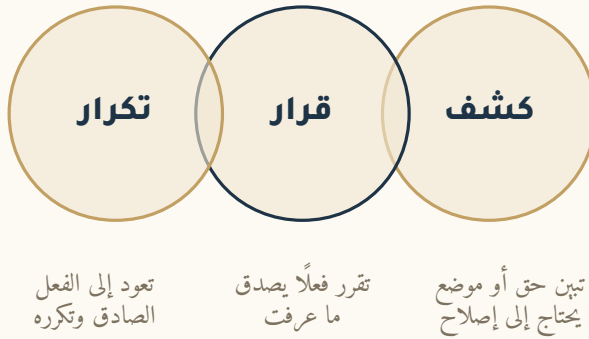
ثم تقرر فعلاً يصدق ما عرفت، داخل علمك وقدرتك ووسعك. إن تبين أنك أخطأت في حق أحد، لم يكف العلم بذلك؛ تعتذر وتصلح ما تستطيع. وإذا رأيت حقاً ضيعته، تسعى إلى رده. وقد تكون البداية تعلماً أو طلب عون أو تغييراً في البيئة. تبقى الاستجابة اختياراً حقيقياً، وقد تحمي النفس المخالفة بالتبرير بدل أن تواجهها.

ثم تعود إلى الفعل الصادق وتكرره، مستعيناً بالله. قد يتأخر القلب عن الفهم، أو تعود عادة قديمة، فتراجع السبب وتستأنف الإصلاح من غير إذلال. ومع المداومة يتبيأ الرسوخ، لكنه لا يُضمن بالتكرار وحده؛ يحتاج إلى معرفة وصدق وممارسة وبيئة وعون ومدد. وهذه حركات متداخلة: قد يكشف العمل ما لم يظهر في البداية، فتراجع قرارك وتصحح تكرارك.

توسع كتب الأخلاق معنى الصدق فلا تحصره في اللسان؛ يذكر الغزالي الصدق في القول والنية والعزم والوفاء والعمل، ويربط كمال مراتبه بالصدق¹. وفي القرآن يظهر صدق العهد حين يترجم في موقف: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: 21].

1 الغزالي، «إحياء علوم الدين»، كتاب النية والإخلاص والصدق.

والتوبة جزء من هذا الطريق لا اعتراف بالفشل النهائي. تكشف المحاسبة موضع الفجوة، وتعيد التوبة الوجهة، ويثبت الإصلاح صدق الرجوع. لذلك لا يعود الصادق إنساناً بلا زلة، بل إنساناً لا يجعل الزلة قناعاً ولا مقاماً.



وهذه حركات متداخلة

الصديقية: الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي

الصديقية هي الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي، وفيها يبلغ تصادق جهات النفس وانتظامها تحت الحق والعبودية أعلى مراتبه؛ وهي نفسها ذات مراتب في الشدة والسعة. وليست نقطة توقف ولا لقباً يدعيه الإنسان لنفسه بسهولة، ولا تعني العصمة عند غير المعصوم، ولا تبيح تصنيف الأشخاص أو الحكم على مواطنهم. قد يصدق الإنسان في باب ويظل في باب آخر على طريق المجاهدة، ولا يمنع رسوخ الصدق وقوع الخطأ والرجوع.

وقولنا «انحسار الفجوة المستقرة» أدق من ادعاء انعدام كل فرق لحظي. قد يسبق العقل القلب إلى معنى، ثم يلحقه القلب بالمجاهدة. وقد يقع خاطر

مرفوض. الصديق لا يختار الخاطر ولا يبني عليه وجهة، ويعود سريعاً إلى ما استقر عنده من حق.

وفي الصديقية يصدق الظاهر الباطن من غير أن يصبح الإنسان استعراضياً. قد يعمل الخير في الخفاء، وقد يصمت حيث يكون الكلام رياءً. المطابقة ليست كشف كل باطن، بل ألا يكون الباطن ناقضاً لما يظهره من حق.

ولهذا لا تتطابق الصديقية والطمأنينة. فالطمأنينة مقام قلبي متدرج ينشأ من رسوخ معرفة الله وذكره والعبودية له واستقرار مرجعية النفس إليه، أما الصديقية فتصف تصادق جهات النفس وانتظامها تحت الحق والعبودية. وقد تجتمعان بدرجات مختلفة، وتبلغ الطمأنينة في مسار الصدق والصديقية مراتب رفيعة.

طريق الصدق يضيق الفجوة، وذروته أن يرسخ الصدق وتخسر الفجوة المستقرة التي تثبناها النفس بين ما تعرفه من الحق، وما يستقر في قلبها، وما تنويه وتقولاه وتفعله. هذا المقام نسميه الصديقية.

قال تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41]. ووصف مريم عليها السلام بأنها ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]. فاللفظ القرآني يدل على مرتبة رفيعة من تحقق الصدق في الإنسان، لا على صدق خبر منفرد فقط.

ويضع القرآن الصديقين في مراتب الهداية العليا مع الذين أنعم الله عليهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

وفي التراث الإمامي ورد في «الكافي» وصف فاطمة الزهراء عليها السلام بأنها «صديقة شهيدة»، وشاع لقب «الصديقة الكبرى» في سياقه العقدي والتاريخي الخاص.¹ ورُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها».² ويبقى «الصديقة الكبرى» لقباً أو وصفاً تراثياً في سياقه الخاص، لا مرتبة تحليلية عامة. ويستأنس هذا الكتاب بهذه النصوص في بيان رسوخ الصدق واجتماع المعرفة والقلب والنية والقول والعمل حول الحق، من غير أن يفتح هنا مسائل عقدية أخرى لا يحتاجها مسار الكتاب.

الصديقية ليست غياب المشاعر الإنسانية، بل غياب الازدواج المستقر مع الحق. قد تتألم النفس الصديقة، وتحزن، وتخاف، لكنها لا تثبني في باطنها وجهة تناقض ما عرفت، ولا تجعل ظاهرها قناعاً دائماً لسريرة أخرى.

وليست الصديقية خروجاً من البشرية أو غياب كل خاطر عابر. ذروتها رسوخ الصدق وانحسار الفجوة المستقرة التي تثبناها النفس مع الحق؛ فإذا ورد خوف أو ألم أو خاطر مرفوض لم يتحول إلى وجهة ثانية، وبقي الظاهر ترجماناً صادقاً للباطن.

1 الكليفي، «الكافي»، ج1، كتاب الحجّة، باب مولد فاطمة عليها السلام، ح2، ص458 في طبعة دار الكتب الإسلامية: «إن فاطمة صديقة شهيدة». وانظر القرآن: مريم: 41، والمائدة: 75.

2 الشيخ الصدوق، «الأمالي»، المجلس الحادي والستون، ح1، ج1، ص467: «يا فاطمة، إن الله تبارك وتعالى ليغضب لغضبك ويرضى لرضاك»، وانظر أيضاً: المجلسي، «بحار الأنوار»، ج43. استعمل الحديث هنا شاهداً على مقام فاطمة الزهراء عليها السلام في الرؤية الإمامية، لا لإقامة بحث مستقل في العصمة أو لتحويل لقب «الصديقة الكبرى» إلى مرتبة تحليلية عامة في المشروع.

اجتماع النفس والقوة الداخلية

الذات المنقسمة تنفق جزءاً كبيراً من قوتها في التبرير والإخفاء والتردد. وحين نتوحد لا تصبح قادرة على كل شيء، لكنها تستعيد ما كان يضيع داخلها. لذلك فالقوة هنا ليست زيادة عضلية في الإرادة، بل انخفاضاً في الاستنزاف الداخلي.

هذه القوة تعمل داخل حدود الإنسان المخلوق: قد يتعب ويحتاج إلى الراحة، وقد يخاف ويطلب العون، وقد يخطئ فيراجع نفسه. لكنها تمنع الانقسام من أن يستهلك طاقته، وتجمع قدرته حول وجهة واحدة تستمد ثباتها ومددها من الله.

حين تنحسر الفجوات المستقرة، تزداد جهات النفس تصادقاً وانسجاماً تحت الحق والفطرة، ويشتد اجتماعها؛ فتقل أسباب التشتت والتنازع والحجب المزاحمة، وتزداد طمأنينتها وثباتها واستقرارها. هذا هو اجتماع النفس الذي نقصده هنا. أما «البساطة الوجودية» فتبقى وصفاً فلسفياً تابعاً في التعبير الصدراي.¹

ومن هذا الاجتماع تنبع قوة داخلية أوسع في حدود الإنسان ومعطاه، لأن طاقته تقل هدراً في التناقض والتبرير. تستمد هذه القوة ثباتها ومددها من الله، فليست قوة استغناء، بل قوة افتقار وإع؛ وليست انفصلاً عن العالم، بل قدرة أكبر على دخوله بالحق والرحمة.

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص 17 وما بعدها، ومباحث النفس في ج 8 وج 9؛ وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج 1، ص 208، وج 2، ص 436.

وجودك كله قائم بالله، مفتقر إليه في أصله وبقائه وآثاره؛ لكن هذا الافتقار لا يحو ذاك، بل يردّها إلى حقيقتها: ذاتاً مخلوقة مسؤولة، تُتكوّن عبر ما أُعطيت وما وقع عليك وما عرفت واختارت وعملت، ولا تستقل لحظة عن خالقها ومدده.

ومع مضيك في طريق الصدق الذاتي، وبالهداية والتزكية والمدد، لا يتغير سلوكك فحسب، بل تتغير صورتك الوجودية: يقل التشّت والازدواج فيك، وتزداد جهات نفسك اجتماعاً حول الحق، ويترسخ نصيبك من الصديقية؛ فظهر فيك القوة والطمأنينة والرضا، وتبلغ ذاتيتك كلها الإنساني في العبودية لله.

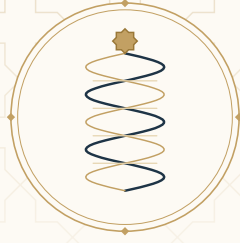
بهذا المعنى، لا تكتمل ذاتيتك بالاستقلال عن الله، بل بالقيام به والعبودية له. وما يصير إليه وجودك من حكمة ومعرفة حقّة وإرادة مستقيمة وقوة في الحق ويقين وطمأنينة ورضا ليس أمتعة تحملها؛ إنه الصورة التي تصير إليها نفسك.

ومن هنا نفهم صلة تصادق الجهات واجتماع النفس بزيادة طمأننتها وثباتها واستقرارها. إنها طمأنينة إلى الله، لا غياب الألم أو الخوف، والصديقية ذروة متدرجة لمسار الصدق الذاتي، والعبودية هي المحور الذي تنتظم حوله هذه المعاني.

ويبقى السؤال: كيف يتحول الحق من معنى تعرفه إلى هيئة تصدر عنها أفعالك؟ وكيف يصبح الاختيار المتكرر شاكلة؟ هذا ما يفتحه الفصل التالي: حركة الجوهر.

وقفة تأمل

قبل أن تطوي الفصل، انظر إلى فجوة واحدة بين ما استبان لك من الحق وما تكرره في واقعك. لا تكتف بإدانة نفسك، ولا تطلب أن تغلق كل الفجوات في يوم. سمّها بلا قناع، وحدد فعلاً واحداً يصدق معرفتك، ثم كرره حتى يبدأ فيك مسار جديد.



الفصل السابع

حركة الجواهر

تمهيد: من الفعل إلى الشاكلة

قد تبدأ الشاكلة قبل أن يملك الإنسان وعياً كاملاً: لغة البيت، ونظرة الأسرة إلى المال والخوف والناس، وطريقة الاستجابة للخطأ. هذه الطبقات تفسر الميل الأول، لكنها لا تحكم النهاية. حين يراها الإنسان، تصبح قابلة للمراجعة بدرجات مختلفة.

والشاكلة ليست دائماً متجانسة. قد يكون الإنسان سخيّاً مع أهله بخيلاً مع غيرهم، شجاعاً في عمله خائفاً في علاقته، صادقاً في المال متردداً في الاعتراف بالخطأ. الصورة مركبة، ولذلك يحتاج التغيير إلى تحديد لا إلى حكم عام.

ومن الخطأ أن تجعل الشاكلة عذراً: «هكذا أنا». ما أنت عليه الآن نتيجة تاريخ، لا قدر مغلق. ومن الخطأ المقابل أن تتجاهل الرسوخ وتطلب انقلاباً في يوم. التزكية تحترم عمق العادة وتبني طريقاً واقعياً لتغييرها.

والفعل يكشف الشاكلة ويغذيها معاً. حين تتهرب تحت الضغط، يكشف الفعل ميلاً سابقاً، ثم يزيده قوة. وحين تختار الصدق رغم الخوف، يكشف قابلية للتحق ويمنحها أثراً جديداً. أنت تقرأ نفسك وتكتبها في اللحظة نفسها.

ليست أعمالك حوادث منفصلة تنتهي بانتهاء لحظتها. كل فعل يترك في النفس أثراً، وكل أثر يتكرر يطلب أن يستقر. ومع الزمن لا تعود تفعل الشيء لأنك قررت في تلك اللحظة وحدها، بل لأن فيك هيئة تميل بك إليه وتجعله أقرب إلى الصدور.

يسمي القرآن هذه الصورة الداخلية «الشاكلة»: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]. وفي سياق هذا الكتاب تقرب الآية الشاكلة بوصفها قاعدة داخلية يميل الإنسان إلى العمل وفقها من غير أن تجبره. والشاكلة ليست نية عابرة، ولا عادة منفردة، ولا عدسة عقلية وحدها؛ إنها البنية الداخلية النفسية والخلقية ذات الرسوخ النسبي في مرحلة من تكون الإنسان. تدخل فيها معارفه وتصوراتهِ وتقديراته ومحباته ونياته وميوله وعاداته وملكوته، وما استقر فيه من آثار المزاج والبدن والتربية والبيئة والتجارب والاختيارات؛ فتجعل بعض طرائق الإدراك والاستجابة والعمل أقرب إلى الصدور من غير أن تجبره عليها. والفطرة أصل خلقتها ومعيارها، لا عنصراً داخلها.¹

والهيئة الراسخة أو الملكة أضيق من الشاكلة: صفة مخصوصة استقرت في النفس، كالصدق أو الصبر أو البخل، حتى صار الفعل الموافق لها أيسر. أما الشاكلة فتجمع جملة الهيئات والتصورات والميول التي تعمل معاً.

¹ الطباطبائي، «الميزان»، ج 13، ص 192-193، في تفسير ﴿كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾، وأن الشاكلة هيئة مؤثرة غير جارية.

لكن الشاكلة لا تسلبك الاختيار. هي تميل ولا تجبر، وتؤثر ولا تحتم. وبعض عناصرها لم تبدأ باختيارك، لكن مسؤوليتك تتصل بما تعرفه وترضاه وتغذيه وتكرر الإصرار عليه. ولهذا تبقى التوبة والتزكية ممكنتين ما دامت الحياة.

الحركة في صميم النفس

لا يعني التحول العميق أن كل تغير يومي يمس البنية الحاكمة للنفس. كثير من الأحوال يمر ثم يزول. والتحول العميق تغير داخل عملية التكوّن يمس التصورات الأساسية، وترتيب المحبوبات، والوجهة، والملكات الراسخة، فيغير ما يصير إليه الإنسان لا سلوكه الظاهر وحده. وقد يتجه إلى الكمال أو إلى النقص؛ فالعمق يصف مستوى التغير، لا قيمته الأخلاقية.

فالمبتدئ يرى الصبر حرماناً، ثم يتعلم أنه حفظ للوجهة، ثم يجرب أثره، ثم يصبح احتمال الألم مع المعنى أيسر. لم تتغير كلمة الصبر، بل تغيرت النفس التي تلتقاه. وهذه النقطة هي ما يهم الكاتب.

والحركة ليست دائماً صعوداً. العادة السيئة أيضاً تتحرك بالنفس، والمعرفة التي تغذي الكبر تزيدها رسوخاً في وجهة خاطئة. لذلك تحتاج الحركة إلى ميزان، والميزان هو الوجهة لا شدة النشاط.

وما يتحول في النفس يظهر في العالم: قرار أكثر عدلاً، أو لسان أقل أذى، أو قدرة على تأخير الرغبة. لا نختبر دعوى التحول بالشعور وحده؛ ننظر إلى ما صار أسهل وما صار أصعب، وما يتركه الإنسان فيمن حوله.

ولك في نشأتك الأولى مثال قريب: نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظام تُكسى، ثم طفل يخرج إلى الدنيا — صيرورة واحدة متصلة، لا مقاطع ملصقة بعضها إلى بعض. فإذا كانت الشاكلة صورة متصلة، فما العملية التي تتكوّن بها؟ هنا يفيدنا مفهوم «الحركة الجوهرية» عند صدر المتألهين: الموجود المادي لا يتغير في أعراضه فقط، بل يجري فيه تحول في صميم وجوده. ويستفيد هذا الكتاب من هذا المبنى الصدراي في تفسير إمكان أن يبلغ التغير كيفية النفس الوجودية؛ فتتراكم المعرفة والنية والعمل حتى يخرج ما فيها من القوة إلى الفعل. ومع ذلك، لا يكون قبول الحركة الجوهرية شرطاً لقبول أصل التكوّن أو التزكية أو التوبة؛ فهي تفسير فلسفي مساند، لا الأساس الوحيد للمعنى.

لا نستخدم المفهوم شعاراً لامعاً، ولا ندعي أن كل تفصيل في النفس الحديثة قد شرّحه الفلاسفة. نستفيد منه بقدر شرح إمكان أن يبلغ التغير عمق النفس: الإنسان ليس باطناً ثابتاً يبدّل سلوكاً خارجياً فحسب؛ إن ما يكرهه بوعي واختيار قد يصير هيئة، والهيئة تدخل في صورته الوجودية المكتسبة.

لهذا لا تحمل صفاتك كما تحمل أمتعتك. الحكمة التي رسخت، والرحمة التي صارت طبعاً، والحسد الذي غُدّي طويلاً، ليست أشياء موضوعة بجانبك؛ إنها كيفيات وجود النفس. تبقى أنت النفس نفسها، لكنك لست بعد الرسوخ كما كنت قبله.¹

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص 17 وما بعدها، ومباحث النفس في ج 8 وج 9؛ وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج 1، ص 208، وج 2، ص 436.

الوجهة: ليست كل حركة نموًا

قد تخرف الوجهة من غير أن يتغير عنوانها. يبقى الإنسان يقول «لله»، لكن العمل يتحول ببطء إلى طلب صورة أو نفوذ. المحاسبة لا تسأل عن الشعار وحده؛ تسأل: ماذا يفرحك في النتيجة؟ وما الذي يكسرك إن لم يره الناس؟

والوجهة لا تلغي الأهداف الجزئية. تعمل، وتتزوج، وتتعلم، وتبني مؤسسة. لكنها تضع هذه الأهداف داخل غاية أكبر، فلا تصبح الخسارة في واحد منها انهياراً لكل المعنى، ولا يصبح نجاحه إذناً بتجاوز الحق.

وقد تحتاج الوجهة إلى تجديد لأن الحياة تعيد ترتيب أولوياتها. ما كان وسيلة يتحول إلى غاية إذا لم تراجعها، وما كان أمانة يتحول إلى هوية. الذكر والمحاسبة يعيدان الأشياء إلى مواضعها.

قد تزداد قوى النفس وكالاتها الجزئية، فتشدد مرتبتها من جهة العلم والفهم والإرادة والقدرة؛ لكن فساد الاستجابة يجعل هذه القوة أداة لبعد أعمق، ويعظم بها قيام الحجة والتبعة. فالحركة لا تُقاس بكثرتها وحدها: ماذا تزيد فيك؟ وإلى أين تمضي بك؟

الغاية هي المقصد الأعلى: عبودية الله وطلب رضوانه ولقائه. والوجهة هي الاتجاه الفعلي الذي تأخذه حركة النفس عبر الزمن. قد تعلن غاية، لكن عاداتك وقراراتك تكشف وجهتك العملية.

والنية قصد يوجه فعلاً في لحظته، أما الوجهة فأوسع: الصورة التي تكشفها مجموعة النيات والاختيارات والأعمال حين تجتمع. قد تكون نية صالحة في فعل واحد، بينما لم تستقر النفس بعد على وجهة موحدة.

ولا تكفي النية الحسنة لتصحيح فعل باطل أو تعويض واجب متروك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]. جمع بين الإرادة والسعي الموافق والإيمان.

العمل يختبر النية، والنية تمنح العمل روحه. والنمو التزكوي هو نمو قوى النفس وكالاتها وانتظامها في استجابة إيجابية للحق والعبودية. أما ازدياد القوة مع فساد الوجهة فاشتداد تكويني لا تزكية؛ فكل نمو تزكوي اشتداد تكويني محمود، وليس كل اشتداد نمواً تزكويًا.

التوبة والمحاسبة: تصحيح الحركة وتجديد الوجهة

المحاسبة الصحيحة محددة: موقف، ودافع، وفعل، وأثر، وخطوة إصلاح. أما السؤال العام «لماذا أنا سيئ؟» فينتج عاراً غامضاً لا يغير شيئاً. تنظر إلى ما فعلت لا لتختزل نفسك فيه، بل لتمنع تكراره.

والندم على خطأ تبين لك يدعوك إلى التوبة والإصلاح، لا إلى إدانة نفسك كلها أو البقاء في محاکمتها. تطلب المغفرة، وتغير ما تستطيع من المسار الذي أخطأت فيه؛ فالمقصود رجوع صادق إلى الحق، لا مجرد التخلص من شعور مزعج. واستعن بما تحتاج إليه من رفق وعون.

وإذا تعلق الخطأ بحق الناس، لا تكفي حالة باطنية. ترد حقاً، أو تطلب مسامحة حيث لا يزيد الطلب الضرر، أو تصلح أثراً بقدر الإمكان. التوبة تعيد العلاقة بالله، والعدل يطلب معالجة ما وقع في خلقه.

لأنك تتحرك حتى حين لا تنتبه، تحتاج إلى وقفة تكشف المسار، لا إلى إدانة تطيل الوقوف. المحاسبة أن تنظر بصدق إلى ما قدمت: ماذا كررت؟ أي ميل غذيت؟ وإلى أي جهة أخذت أعمالك؟ إن وجدت خيراً حمدت الله وثبته، وإن وجدت انحرافاً سمّيته وحددت ما يلزم إصلاحه.

والتوبة ليست أسفاً عابراً ولا كلمة تمر على اللسان، بل رجوع إلى الله: ندم يوقظ، وترك للانحراف، وعزم على ألا يغذى المسار نفسه، وإصلاح لما يمكن إصلاحه. ويشرح العلامة الطباطبائي أن توبة العبد مخوفة بتوفيق من الله قبلها وقبول ورحمة بعدها.¹

التوبة تغير الوجهة منذ لحظة صدقها، لكنها لا تجعل آثار العادات الراسخة، والحقوق المتعلقة بالناس، والنتائج الواقعية تزول آلياً. قد يحتاج ما رسخ إلى فعل مضاد يتكرر، وقد يحتاج ما وقع في الواقع إلى رد حق أو علاج أثر. وقد تصاحب هذا الرجوع مشقة مقاومة العادة وندم مواجهة الخطأ؛ وهذا غير الاسترسال في الإعراض، وإن تداخلت آثارهما في تجربة واحدة. فلا استمرار الألم وحده دليل على استمرار الإعراض، ولا زواله وحده دليل على الاستقامة.

وفي هذا البناء نقرأ الاستقامة وفاءً متجدداً بمقتضى قولك: ربي الله. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: 30، موضع الشاهد]. ثبت على الحق، وثوب إذا انحرفت، وتصلح ما تستطيع؛ فلا تشترط كمالاً سابقاً

¹ الطباطبائي، الميزان، ج4، ص237 وما بعدها، في التوبة بوصفها رجوعاً إلى الله، وأن توبة العبد مخوفة بتوفيق سابق وقبول لاحق؛ وج19، ص218 في معنى المحاسبة في قوله تعالى: ﴿ولتنتظر نفس ما قدمت لغد﴾.

لتبدأ، ولا تجعل بطء تغير العادة حجة لترك الطريق. وقد تصح الوجهة قبل أن تصبح الاستجابة الصالحة سهلة؛ وهنا تعمل التزكية على تقريب الشاكلة منها.

لهذا لا تعيدك التوبة إلى نقطة الصفر؛ إنها تمنع ماضيك من أن يصير قدرك، وتفتح لحركتك اتجاهًا جديدًا. والمحاسبة تكشف، والتوبة تعيد التوجيه، والإصلاح يثبت الرجوع، والتكرار الجديد يعيد تشكيل الشاكلة.

ويجمع هذا المعنى ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المؤمن مفتن تواب»¹. لا يمدح الحديث الوقوع في الفتنة، ولا يجعل الذنب شرطًا للنمو أو جرعةً مطلوبة في الطريق؛ إنما يصف واقع الإنسان المجاهد، ويحدد ما يميز المؤمن فيه: أنه إذا افتتن رجع. فالفارق ليس بين من يُختبر ومن لا يُختبر، بل بين من يحمي الانحراف بالتبرير، ومن يواجهه بالتوبة والإصلاح، قبل رسوخه أو بعده.

ولهذا لا يليق بالعائد أن يظن أن ذنبه أفسد كل شيء فيأأس، ولا أن يستهين به فيستمرئ العود. باب التوبة مفتوح ما دامت الحياة، والرجوع نفسه مما يحبه الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

¹ الكليني، «الكافي»، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب في تنقل أحوال القلب، ح1، في الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن المؤمن مفتن تواب». استعمل اللفظ لفتح باب الرجوع، لا لمدح الذنب أو جعله شرطًا للنمو.

كيف لا تستنزفك الحركة

من أكثر ما يرهق الإنسان أن يخلط بين الجهد والاستنزاف؛ فيظن أن التعب وحده دليل القرب، وأن كثرة العمل علامة الصعود. والواقع أن التعب لا يكشف وحده عن قرب أو بعد: قد يكون تعب صعود، وقد يكون تعب تيه.

وكثيراً ما لا يتعب الإنسان من العمل نفسه بقدر ما يتعب من فقدان معناه. القلب الذي يعرف لماذا يعمل يحتمل طويلاً، والقلب الفارغ من المعنى ينوء بأيسر الأعمال. ولا يعني هذا أن المعنى يلغي حدود البدن وحاجته إلى الراحة والعلاج؛ فبعض الإنهاك مرض يعالج، وبعضه ظلم في توزيع الأحمال يرفع. لكن المعنى، حين يحضر، يخفف الحمل ويحفظ الوجهة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. ولاحظ نظم الوعد: لم يقل «لنرفعن عنهم المشقة»، بل ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. فلا تعد الآية بزوال المشقة، بل بهداية تصحب المجاهدة في الله وتحفظ صاحبها من الضياع في الطريق. فليس كل جهد يفتح سبيلاً؛ العبرة بوجهته ومعناه.

وقد تنزل السكينة على الإنسان وهو في وسط العمل، لا بعد انتهائه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾ [الفتح: 4]. وتأمل أن موضع الإنزال المذكور في الآية هو ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فقد تبقى الظروف مضطربة وتنزل السكينة في الداخل، وقد يفتح الله في الخارج أيضاً أسباب فرج وتيسير. والسكينة ليست توقفاً عن الحركة، بل طمأنينة ترافق المتحرك. ولا نجعل الشعور وحده ميزاناً للوجهة؛ فقد يقلق المؤمن عارض بدني أو ظرف قاهر وهو على طريقه، وقد يستريح الغافل زمناً.

وحتى لا تستنزفك الحركة، أعط كل جهة من جهاتك حقها: لا ترهق البدن حتى ينهار، ولا تهمل القلب حتى يقسو، ولا تربك العقل حتى يتشتت، ولا تنس الروح حتى تذبل. وروي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام أنه دعا إلى قسمة الزمان بين مناجاة الله، وأمر المعاش، ومعاشرة الإخوان الثقات الذين يعرفون العيوب ويخلصون في الباطن، وساعة للذة المباحة تكون عوناً على الساعات الأخرى¹. فالراحة المشروعة ليست خصماً من الطريق، بل سبباً من أسبابه.

كيف تتحول المعرفة إلى كيان

بين المعلومة والملكة مراحل. تسمع أن الحلم فضيلة، ثم تفهم لماذا، ثم تلاحظ غضبك، ثم تصمت مرة، ثم تتعلم تعبيراً لا يظلم، ثم تكرر. في كل مرحلة معرفة جديدة: ليست عن الحلم فقط، بل عن نفسك وشروط قدرتك عليه.

والنية تؤثر في طبيعة الأثر. قد يضبط إنسان غضبه خوفاً من خسارة صورته، فيتعلم كبتاً لا حلماً. وقد يضبطه احتراماً لحق الآخر، فينمو العدل. الفعل الظاهر متشابه، لكن الوجهة تسهم في تحديد الملكة التي تتكون.

ولا يلزم أن تنتظر الإخلاص الكامل قبل العمل. تبدأ بنية فيها شوائب، ثم تراجعها. قد يكون الفعل نفسه مرآة تكشف طلب المدح. شرط الطريق أن لا ترضى بالشائبة بوصفها الغاية، ولا تهجر الخير لأن باطنك لم يصف بعد.

¹ ابن شعبة الحراني، «تحف العقول عن آل الرسول»، ص 409-410، من وصايا الإمام موسى الكاظم عليه السلام في قسمة الزمان بين المناجاة والمعاش والإخوان الثقات واللذة المباحة، وجعل الأخيرة عوناً على الساعات الأخرى. وانظر أيضاً: المجلسي، «بحار الأنوار»، ج 75، ص 321، ح 18.

ومع الرسوخ تقل الحاجة إلى القرار التفصيلي، لكن لا تختفي الحرية. الصادق يستطيع أن يكذب، إلا أن الكذب صار أثقل وأغرب. الملكة تسهل ولا تجبر، ولهذا يبقى للمدح واللوم والتوبة معناها.

والمعارف والنيات والأعمال والملكات تدخل في تكون النفس وصورتها الوجودية، وتظهر حقائقها وآثارها في الآخرة بصور تلائم تلك النشأة، بإظهار الله وحكمه؛ فيكون الجزء متصلاً بحقيقة العمل وما صار إليه الإنسان. ولا يعني ذلك أن الجزء آلية مستقلة عن الله، ولا أنه يستنفذ الثواب والعقاب والمغفرة والشفاعة، ولا يجوز لنا أن نرسم تفاصيل الآخرة بلا نص أو نحكم على مصائر الأفراد.¹

تبدأ المعرفة خبراً يصل إليك. ثم تفهمه، وتصدق، وتختبره في موقف. إذا اخترت العمل به، ترك أثراً. وإذا تكرر العمل مع القصد، صار الأثر حالاً أقرب إلى الاستقرار. ومع المداومة يصير الحال ملكة، وتدخل الملكة في الشاكلة.

الفعل الواحد مهم، لكنه لا يكشف دائماً عن ملكة. قد يصدق الجبان مرة، وقد يكذب الصادق تحت ضغط. الحكم على الشاكلة يحتاج إلى النظر في الاتجاه المتكرر، وما يصدر بيسر، وما يعود إليه الإنسان بعد العارض.

وهنا يأتي مصطلح فلسفي نستخدمه مرة واحدة: اتحاد العاقل بالمعقول. لا يعني امتزاج شيئين مستقلين أو اتحاد الإنسان بالله، بل أن العلم الحقيقي يصير كلاً

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص 17 وما بعدها، ومباحث النفس في ج 8 وج 9؛ وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج1، ص 208، وج 2، ص 436.

فعلياً للنفس، فلا تبقى النفس بعد العلم كما كانت قبله. وقد بسط صدر المتألهين هذا المعنى في بحث العلم واتحاد العاقل بالمعقول.¹

أما لغة هذا الكتاب العملية فهي: ترسخ الحق، وصيرورة الصفة هيئة، وتكون الشاكلة. المقصود تحول نفس واحدة بما عرفت واختارت وعملت، لا مزج حقيقتين ولا ذوبان المخلوق في الخالق.

حين تعرف الصدق ثم تصدق في مواضع الخوف، يتغير فيك شيء. في البداية تحتاج إلى قرار ثقيل. ثم يخف الثقل مع التكرار، حتى يصبح الكذب هو الغريب. لا تنتقل «صفة» من خارجك؛ تنمو في النفس ملكة مخلوقة تناسب عبوديتك وحدودك.

ومع رسوخ الصفة يتحول الحكم من مراقب خارجي إلى ميزان داخلي. في البداية تحتاج إلى تذكير وعقوبة أو مكافأة، ثم يصير الصدق نفسه محبوباً والكذب منفراً. لا يستغني الإنسان عن الشرع والمحاسبة، لكن الطاعة لا تبقى حركة مفروضة من الخارج؛ تصبح أقرب إلى طبع اختارته النفس وربته.

وهذه آثار الأسماء الحسنى في الإنسان: أن تتحقق في النفس، على قدرها المخلوق، رحمة وعدل وعلم وحكمة وصدق وسائر الكمالات التي يحبها الله، حتى تصير ملكات راسخة. ويستعمل التراث لفظ «التخلق» لهذا المعنى، على أن يبقى تخلقاً مخلوقاً محدوداً، لا مماثلة فيه لله، ولا مشاركة في صفاته المطلقة، ولا استقلالاً بها. لا تنتقل صفات الله إلى العبد، ولا يصير عدله عين العدل الإلهي؛ إنما يتحقق بكمال إنساني مخلوق يدل على عبوديته.

¹ صدر المتألهين، الأسفار، ج3، ص324-325، في اتحاد العاقل بالمعقول، مع التنبيه إلى أنه لا يعني امتزاج موجودين مستقلين ولا اتحاد العبد بالله.

التفاصيل الصغيرة تبني الصورة

التفصيل الصغير لا يساوي مصيراً نهائياً. ومن مخاطر الحديث عن التكرار أن يتحول إلى وسواس. لا تحكم نفسك على كل حركة، بل راقب الأنماط: ما الذي يعود؟ ما الذي تدافع عنه؟ وما الذي ترفضه وتصلحه إذا وقع؟

ومن الحكمة أن تختار «فعلاً مفتاحياً» يجر وراءه غيره. نوم منتظم قد يحسن الصلاة والعمل، ومجلس علم قد يغير الصحبة، وقطع مصدر محتوى قد يخفف المقارنة. ليس كل تغيير محتاجاً إلى عشر معارك منفصلة.

والاستمرارية أصدق من الشدة القصيرة. عمل قليل يحفظ الوجهة يمكن أن يبني مساراً، وحملة قاسية قد تستنزف النفس ثم تعيدها إلى ما كانت عليه. التدرج ليس تنازلاً عن الغاية، بل احترام لسنة الرسوخ.

لا تتكوّن الشاكلة في القرارات الكبرى وحدها. كلمة تؤجلها، ونظرة تسمح لنفسك بها، ووعد تفي به، وموقف تهرب منه، كلها خيوط. لا ينبغي أن تعيش في رعب من كل زلة، لكن لا تحتقر التكرار؛ فالعادة هي الفعل وقد وجد طريق العودة.

وقد يعمل التكرار في الاتجاهين: ذكر يعيد الوجهة، أو شكوى تغذي السخط؛ صدقة توسع القلب، أو مقارنة تزيد الحسد؛ اعتذار يضعف الكبر، أو تبرير يرسّخه. ليس السؤال «ماذا فعلت؟» فقط، بل «أي طريق في نفسي جعلته أسهل؟»

والبيئة تدخل في هذه الآلية. الصحبة والمحتوى والمكان والوقت إشارات تستدعي بعض السلوك وتضعف غيره. وقد تضيق هذه الإشارات مجال

الاختيار بدرجات؛ وفي الأحوال المعتادة تجعل بعض الطرق أقل مقاومة. وقد بينت أبحاث العادات أن تكرار الفعل في سياق ثابت يقوي ارتباطه بإشارات ذلك السياق.¹ لذلك تكون صيانة البيئة جزءاً من صيانة الشاكلة.

صيانة البيئة التي تغذي الشاكلة

قد تكون البيئة شخصاً واحداً يذكرك بمن تريد أن تكون. وقد تكون قاعدة في البيت: لا سخرية، أو وقت بلا شاشات، أو صلاة تُحفظ. البيئة الصالحة ليست مثالية، لكنها تجعل الرجوع ممكناً ومألوفاً وأيسر.

ولا تحول الصيانة إلى عزلة متعالية. المؤمن يعيش بين الناس ويخدمهم، لكنه يعرف حدود تعرضه، ويميز بين الرحمة بمن يخطئ وتسليم قلبه لصحبة تدممه. قد تبقى قريباً في الواجب، وتضع مسافة في التأثير.

وأنت مسؤول عن البيئة التي تسهم في تشكيلها بحضورك. إن كنت قائداً أو أباً أو معلماً، فالناس لا يتعلمون من تعليماتك وحدها؛ يتعلمون من ردك عند الخطأ، ومن طريقة استعمال القوة، ومن الشيء الذي تكافئه فعلياً.

¹ Wendy Wood, Jeffrey M. Quinn, and Deborah A. Kashy. "Habits in Everyday Life: Thought, Emotion, and Action." *Journal of Personality and Social Psychology* 83(6), 2002, pp. 1281-1297. DOI: 10.1037/0022-3514.83.6.1281; Wendy Wood and Dennis Runger. "Psychology of Habit." *Annual Review of Psychology* 67, 2016, pp. 289-314. DOI: 10.1146/annurev-psych-122414-033417.

وشبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم المجلس الصالح بحامل المسك، وجلس السوء بناخ الكبير؛ فقد تنال من الأول طيباً، وقد يصيبك من الثاني أذى أو رائحة خبيثة. أثر الصحبة قد يقع قبل أن تصوغ قراراً واعياً.¹

انظر إلى ما يتكرر حولك: من يجعل الحق مألوفاً؟ من يغذي فيك السخرية أو الطمع أو القلق؟ ما المحتوى الذي يوقظك، وما الذي يتركك أكثر تشتتاً؟ اختيار البيئة ليس انسحاباً من العالم، بل ترتيباً لما يدخل إلى النفس.

وقد لا تستطيع تغيير البيئة الموروثة كلها، أو مغادرة مسؤولية لازمة. عندها تبني داخلها جيوباً من الصيانة: وقتاً للذكر، وصحبة صادقة، وحدوداً للمحتوى، واستشارة، وعلاجاً، وفعلًا بديلاً يتكرر حتى يصبح له طريق في النفس.

التزكية شرط استمرار التحول

التزكية مسار تطهير النفس من المحب والرزائل، وتنمية قواها وكلماتها، وإعادة توجيهها نحو الحق والعبودية، بهداية الله ومدده. لا يكفي أن توقف الكذب؛ تحتاج إلى بناء الصدق. ولا يكفي أن تقلل الحسد؛ تحتاج إلى شكر ودعاء بالخير. وكل نمو تزكوي اشتداد تكويني محمود، لكن ليس كل اشتداد تكويني تزكية؛ فالفراغ الأخلاقي لا يدوم، والصفة المضادة تمنح النفس طريقاً جديداً.

¹ صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، ح2101؛ وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ح2628، في مثل المجلس الصالح وجلس السوء.

وكلما تقدمت، تغيرت صورة الامتحان. قد يترك الإنسان معصية ظاهرة ثم يدخل عليه العجب بالطاعة، أو يكتسب علماً ثم يحب التفوق به. التزكية لا تجعلك تشك في كل خير، لكنها تبقى الافتقار والمحاسبة حاضرين.

ويحذر القرآن من معرفة لم تُصن بالتزكية في قصة من آتاه الله آياته فأنسلخ منها: ﴿وَأَنلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الأعراف: 175]. قف عند ﴿فَانْسَلَخَ﴾؛ فما لم تصر المعرفة هيئة في النفس، بقيت كسوة ظاهرة يمكن الانسلاخ منها. فالمعرفة تفتح إمكان الصعود، لكنها لا تحرس نفسها؛ تحتاج إلى صدق وعمل وافتقار حتى تصبح هيئة ثابتة.

ومعيار الصيانة ليس أن لا تتغير أبداً، بل أن تعرف طريق العودة. النفس الحية قد تتراجع، لكن لها ذكراً وصحبة وعبادة وتوبة تعيدها قبل أن يصير التراجع اتجاهًا.

ما رسخ يحتاج إلى رعاية. لا لأن كل فضيلة تزول عند أول غفلة، بل لأن النفس حية، والبيئة متغيرة، والغرور قد يدخل من باب النجاح نفسه. التزكية ليست تنظيفاً أولياً ثم ينتهي؛ هي متابعة الوجهة وإزالة ما يزاحمها وتنمية ما يوافقها.

الذكر يعيد المركز، والعبادة تجدد العبودية، والمحاسبة تكشف الانحراف، والتوبة تصحح، والصحبة تحفظ، والعلم يراجع الخريطة. هذه الأعمال لا «تصون اتحاداً» غامضاً، بل تحفظ ما رسخ من الحق وتمنع الشاكلة من الانغلاق على وهما.

الخريطة الجامعة: من الفعل إلى الصورة الوجودية

يستفيد هذا الكتاب من مبنى الحركة الجوهرية عند صدر المتألمين لتفسير إمكان أن يبلغ التغير كيفية النفس في العمق، لا بوصفها مرادفاً لكل تعلم أو عادة. أما لغته العملية فتميز بين المصطلحات: التكوّن هو الصيرورة الفعلية المستمرة التي يصير بها الإنسان، عبر الزمن، إلى ما هو عليه وما سيصير إليه؛ ويُستعمل التشكّل وصفاً عادياً لتشكّل عادة أو ملكة أو شاكلة. والفطرة أصل الحلقة ومعيارها، والشاكلة بنية فعلية ذات رسوخ نسبي، والملكة صفة راسخة داخلها، والوجهة اتجاه الحركة وقيمتها.

لست ذاتاً محايدة تحمل صفاتها من الخارج، ولست حزمة صفات بلا ذات. أنت نفس واحدة تتكوّن صورتها بما يرسخ فيها من معارف ومحبات ونيات وملكات ووجهة. ولذلك لا تحمل صفاتك معك كما تحمل أمتعتك؛ بل تمضي بما صرت إليه.

لكن هذا كله لا يحدث في استقلال عن الله. القدرة، والهداية، وفرصة الفعل، والثبات، وإمكان الثمرة، كلها من عطائه. ومن هنا يفتح الفصل التالي باب المدد الإلهي: كيف يكون فعلك حقيقياً، وافتقارك حقيقياً، في الوقت نفسه؟

خاتمة الفصل: من المعرفة إلى الكينونة

قطعنا في هذا الفصل الطريق من الفعل إلى الشاكلة، ومن الشاكلة إلى الوجهة، ثم إلى التوبة والمحاسبة، وآلية ترسيخ المعرفة في هيئة وملكة. والنتيجة

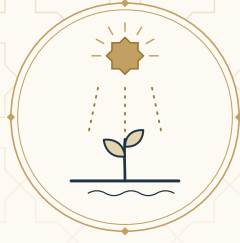
ليست أن الإنسان «يتحد بالحق» على نحو موهم، بل أن الحق يرسخ في نفسه حتى يصير الصدق والعدل والرحمة أقرب إلى الصدور.

وهكذا نتضح «الذات الخالدة»: الشخص الإنساني الواحد، الذي تكون نفسه الإنسانية الواحدة ملاك هويته الشخصية، ويستمر بعد الموت بإبقاء الله، حاملاً ما تكون فيه من معارف ومحبات ونيات وملكات ووجهة؛ لا الصورة الوجودية وحدها. ولا تعني «المكتسبة» أن الإنسان اختار جميع أسباب ما صار إليه؛ فالدح والذم يضبطهما العلم والقصد والاختيار والوسع، ويحمل الشخص ما تكون فيه إلى الآخرة بإبقاء الله وحكمه.

لكن هذا التحول لا يقع بقوة الإنسان المستقلة. الله يخلق ويهدي ويمد ويوفق، والإنسان يستجيب ويختار ويعمل؛ ومن هذا التفاعل تتكون الصورة التي يحملها. فالفعل منه حقيقة في مرتبته، والقدرة والفرصة والهداية والثبات وإمكان الأثر كلها بالله. ومن هنا يفتح الفصل الأخير باب المدد الإلهي: عون يسبق السعي ويصعبه ويفتح له إمكان الثمرة.

وقفه تأمل

قبل أن تطوي الفصل، اختر فعلاً يتكرر في يومك. لا تسأل فقط: أهو حسن أم سيئ؟ اسأل: أي طريق في نفسي يسهل بتكراره؟ أي ملكة يغذيها؟ وهل يقرب شاكلي من الوجة التي أعلنتها، أم يبني في صورة أخرى من حيث لا أشعر؟



الفصل الثامن

المدد الإلهي

تمهيد: تسعى وأنت محمول

ختمنا الفصل السابق بسؤال لا يستقيم الكتاب من دونه: إذا كانت النفس تتكوّن عبر المعرفة والاختيار والعمل وما أُعطي لها وما وقع عليها، فهل يقع هذا كله بقوة الإنسان وحده؟

الجواب: لا. لا يبدأ المدد حين تنفذ قوتك، كأنه يد تأتي بعد أن تنتهي من دورك. أنت لم تبدأ مستقلاً أصلاً: وجودك، وفطرتك، وعقلك، وقدرتك، والوحي الذي يهديك، والفرصة التي لاحت، كلها من عطائه.

ومع ذلك لم يسلبك هذا العطاء فعلك. أنت تنوي وتختار وتبذل السبب حقيقة، ولهذا تنسب إليك أعمالك وتحمل مسؤوليتها. الفعل منك حقيقة في مرتبتك، والقدرة والفرصة والثبات وإمكان الأثر كلها بالله.

ولهذا تجمع الفاتحة بين الجملتين: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]. نعبد: فعل ومسؤولية. ونستعين: افتقار وتوفيق. ويمكن للتأمل في هذا الجمع أن يرى أن الفعل المسؤول لا يقوم مستقلاً عن العون؛ فالعبد محتاج في عبادته كلها إلى عون ربه، لا فيما عجز عنه فحسب — فلا هو متكل يترك السعي، ولا مستغن يظن أن سعيه يقوم بنفسه. لا جبر يلغي الإنسان، ولا استقلال يقطع فعله عن ربه.

المدد الإلهي اسم جامع لهداية الله وعونه وثبتيته وتهيئته للأسباب وفتح إمكان الثمرة، بما يسبق سعي الإنسان ويصعبه ويتجاوزته، من غير أن يكون بديلاً من فعله أو السنن أو أن يضمن له الصورة التي يريدتها من النتيجة. ويمكن أن نقرأه في وجهين متداخلين: مدد تشريعي يهدي، ومدد تكويني يعين ويؤلف الأسباب.

المدد التشريعي: الوحي الذي يهدي

الوحي خريطة من الخالق للإنسان الذي خلقه. قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]. ويجمع النظم بين نفي الضلال والشقاء عمن اتبع الهدى. وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: 16]؛ ويمكن أن يقرب الكتاب هذا السلام بوصفه غيابة للتيه لا غيابة لكل ألم: قد يحزن السائر ويتعثر ويتألم، لكنه يعرف وجهته ويعرف طريق العودة. فالهداية لا تعيش حياتك بدلاً منك، لكنها تكشف الوجهة وتمنح العقل والقلب ميزاناً يتجاوز تقلب الهوى.

ولا يُغني وجود الوحي عن قراءتك وتدبرك. قد تحمل المصحف وتبقى تصوراتك الحاكمة كما هي إذا لم تسأل النص أن يصححها. المدد التشريعي يصل حين نتدبر، ونتعلم من أهل المعرفة، وتجمع الآيات في سياقها، ثم تسمح للمعنى أن يحاكم عادتك لا أن يزيناها.

والسنة تترجم الهداية في حياة بشرية: عبادة، وعلاقة، وقضاء، ورحمة، وصبر. لكن روايتها تحتاج إلى تحقق، وفهمها يحتاج إلى مراعاة السياق؛ فلا ننسب إلى النبي أو الأئمة ما لم يثبت لمجرد أنه يوافق فكرة جميلة.

والاجتهاد البشري في فهم النص يظل بشرياً. لذلك لا تجعل رأياً واحداً مساوياً للوحي، ولا تستخدم تعدد الفهم ذريعة لإلغاء الحكم. تسأل عن الدليل والمنهج، وتحفظ للعلماء قدرهم وللنص سلطته.

حين يهديك الوحي إلى وجهة، لا يلغي تعقيد القرار الديني. قد تحتاج إلى طب واقتصاد وخبرة قانونية. المرجعية تحدد القيم والحدود، وأهل الاختصاص يشرحون الواقع والوسائل. واكتمال الرؤية يحتاج إليهما.

مشكلة الإنسان ليست قلة الطرق، بل كثرتها. ترفع إليه رغباته والبيئة والخوف والطموح أصواتاً متزاحمة، ويستطيع عقله أن يبين لكل صوت حجة؛ فهو بلا خريطة كمن يمشي في غابة ملتفة: يرى طرقاً كثيرة لا يعرف أيها يوصل، ويسمع أصواتاً متداخلة لا يدري أيها الحق. لذلك يحتاج إلى مرجع لا يولد من تقلب النفس نفسها؛ فإذا حكم الوحي في هذا التزاحم لم يختفِ ضجيج العالم من حوله، لكن بدأ ضجيج الداخل يهدأ.

وقد يبلغ الهوى من القوة أن يتحول إلى مرجع نهائي: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: 23]. لذلك لا يكفي أن يكون القرار «نابعاً من الداخل»؛ يحتاج الداخل نفسه إلى نور يراجع، وإلا استطاع العقل أن يبني للحاجة والخوف والطموح ما يشاء من الحجج.

الوحي يجب عن الأسئلة التي تعطي بقية الأسئلة معناها: من أنت؟ لمن تعبد؟ ما الخير؟ وما حدود الوسيلة؟ وإلى أين تمضي؟ وهو لا يلغي العقل، بل يهديه إلى ما يتجاوز خبرته، ويطلبه بالتدبر والنظر والمراجعة.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. من خلق الإنسان أعلم بما يصلحه، لكن الاستدلال بالآية لا يحول الشريعة إلى «دليل آله» ميكانيكي؛ الإنسان ذات مسؤولة، والشريعة هداية وعبودية وتركية، لا برنامج تشغيل للجهاز.

وفي الشريعة صورة الفعل وحدوده: ما يحفظ الحقوق، وما يمنع الظلم، وما يصل العبادة بالحياة. فلا تكفي النية الصالحة من غير عمل صالح، ولا يصح أن يُستبدل إحساس الإنسان بما شرع الله.

والمدد التشريعي لا يقتصر على الأمر والنهي؛ فيه القصص التي توسع الرؤية، والأمثال التي تقرب المعنى، والذكر الذي يعيد القلب، والدعاء الذي يعلم الافتقار، والوعد والوعيد اللذان يكشفان مآل الطريق.

العبادة: تجسيد العبودية وتزكية الإنسان

الصلاة تقطع اليوم في محطات عودة. قد لا تشعر في كل صلاة بانقلاب، لكن انتظام الوقوف يمنع الغفلة من أن تملك اليوم كله. والتكرار هنا ليس عيباً؛ نتكوّن النفس بما يتكرر، وتشكّل عاداتها وشاكلتها بما يعود، ولذلك يعود النداء.

والصوم لا يدرب على الحرمان لمجرد الحرمان. يعلمك أن الرغبة موجودة وليست سيّداً، وأن البدن يستطيع أن ينتظر طاعةً لمعنى. ثم يختبر صدق التدريب في اللسان والخلق، لا في الجوع وحده.

والزكاة والصدقة لا تنقصان رقماً فقط؛ تعيدان تعريف الملكية. ما في يدك أمانة، وحق الآخر ليس فضلاً منك. فإذا خرج المال وبقي الكبر، احتاجت العبادة إلى مراجعة أعمق لا إلى ترك.

والذكر ليس بديلاً عن العمل، بل إعادة اسم الله ومرجعته إلى مركز الوعي. تذكر الله ثم ترجع إلى الرسالة التي بين يديك، وقد تغيرت علاقتك بها: تؤديها أمانة لا إجاباتاً للذات.

العبادة ليست تقنية صُممت لتمنحك أثراً نفسياً، وليست قيمتها متوقفة على ما تشعر به بعدها. الافتقار الوجودي حقيقة عامة لكل مخلوق. أما العبودية فهي الوجهة الواعية المختارة: أن يكون الله رب الإنسان ومرجعه الأعلى وغاية سعيه. والعبادة تجسيد هذه العبودية في الشعائر والطاعات والأعمال المشروعة المتوجه بها إلى الله، بما فيها من امتثال ومحبة وخضوع وذكر. وهي تصدر عن النفس الواحدة، وتتجسد ببدنها في الصورة الشرعية والعمل المشروع، فتدخل الإنسان كله في العبودية، وتكرر حتى تترك أثرها في النفس.

في الصلاة يعود الإنسان من تشتته إلى القبلة والذكر. وفي الصوم يتعلم أن قدرته لا تساوي الإذن، وأن الشهوة يمكن أن تُقَاد. وفي الزكاة يخرج المال من مركز القلب، وفي الذكر تجدد الوجهة وسط الانشغال.

وليست هذه آثاراً آلية. قد يؤدي الإنسان الصورة ويضعف نصيبه من ثمرتها، لكنه لا يستغني عن الصورة باسم الباطن، ولا يملك الباطن أن يحيا طويلاً بلا فعل يحمله ويجدده. وقد ربط الغزالي والخميني تكرار العبادة بتصقيل القلب وتجديد الذكر وترسخ صورة العبودية في النفس.¹

ومن باب المدد يظهر معنى آخر: أنت لا تعبد بقوتك وحدها، ولا تنشئ في نفسك الأثر استقلالاً. تأتي بالفعل، وتطلب من الله أن يحييه فيك، ويقبله منك، ويعيدك به إلى وجهتك. فالعبادة موضع يلتقي فيه سعيك بعون الله.

المدد السابق للسعي والمصاحب له والمثمر له

قد لا ترى المدد السابق لأنه صار مألوفاً: قدرة على القراءة، أو شخص علمك، أو لحظة أمان سمحت لك بالتفكير. الشكر يعيد هذه المقدمات إلى الوعي، فيمنعك من نسبة القصة كلها إلى نفسك.

والمدد المصاحب لا يعني شعوراً دافئاً دائماً. قد يكون في انضباط ثقيل، أو كلمة نقد، أو نتيجة تكشف خطأك. العون ليس دائماً ما يوافق مزاجك؛ هو ما يقربك إلى الحق من غير أن يسلبك الاختيار.

¹ الغزالي، «إحياء علوم الدين»، كتاب أسرار الصلاة؛ وروح الله الخميني، «آداب الصلاة»، في حضور القلب وأثر تكرار العبادة في ترسيخ حقيقة العبودية.

أما ثمرة العمل فليست ملكك. قد تزرع معنى في ابن أو طالب ولا تراه، وقد تعمل مشروعاً وينتهي ظاهره ويبقى ما كونه فيك أو في غيرك. التسليم لا يلغي تقييم النتائج، لكنه يحرك من ادعاء السيطرة على كل أثر.

يسبق المدد سعيك في أصل الخلقة والفطرة والعقل والقدرة والوحي والتنبيه وفرصة الاختيار. ويصاحبه في ثبات قلب، أو فهم يتضح، أو صحة تعين، أو مانع يُصرف، أو باب توبة يفتح. ويظهر أثره في قبول العمل ورسوخ أثره وزيادة الهداية.

هذا التقسيم ليس آلةً تضمن النتيجة التي تريدها. قد تعمل ولا يتحقق المشروع، وتوب وتبقى بعض آثار الماضي، وتدعو ويتأخر ما طلبت. المدد لا يقاس بالنجاح الظاهر ولا بسهولة الطريق.

التوفيق: تأليف الأسباب مع بقاء الاختيار

قد يأتي التوفيق في اجتماع أشياء صغيرة: نوم كافٍ، ومعلومة صحيحة، ووقت مناسب، وقلب مستعد. لا تبدو أي واحدة معجزة، لكن اجتماعها يفتح فعلاً لم يكن ممكناً بالأمس. هذا هو معنى تأليف الأسباب.

وقد يكون صرف السبب توفيقاً: تتعطل وسيلة كانت ستعينك على خطأ. لكن لا يجوز أن نجزم في كل تعطل أنه حماية؛ ربما كان نتيجة إهمال. تنظر في السبب، تصلح التقصير، ثم ترجو أن يجعل الله ما وقع خيراً.

وعندما ترى توفيقاً، لا تحوله إلى علامة تفوق على غيرك. لا تعرف لماذا اجتمعت لك الأسباب؛ فاجعل الفتح مسؤوليةً وشكراً، لا مادةً للعجب.

وإذا لم تجد تيسيراً، لا تستنتج فوراً أن الله تركك. قد يكون الطريق الصحيح شاقاً، وقد تكون بحاجة إلى تغيير الوسيلة، وقد يكون المطلوب مراجعة الوسيلة أو الغاية نفسها. التمييز يحتاج إلى شرع وعقل ومشاورة واستشارة وتواضع.

يعرّف العلامة الطباطبائي التوفيق بتأليف الأسباب على نحو يؤدي بالعبد إلى العمل الصالح، أو بصرف بعض ما يعينه على المعصية.¹ فالتوفيق لا يلغي فعلك، بل يهيئ داخلك وحولك ما يجعل الخير ممكناً أو أقرب.

قد يكون التوفيق فكرة نتضح، أو قلباً يثبت، أو صديقاً ينصح، أو فرصة تعلم، أو توقفاً قبل قرار مؤذٍ. وقد يكون في كشف عيب لا في نجاح مشروع، وفي قبول العلاج لا في زوال المرض، وفي توبة بعد زلة لا في حياة بلا زلل.

وليس الصدق والإخلاص عقداً يلزم الله أن يفتح لك الباب الذي اخترته. هما من أسباب الهداية، لكن التوفيق فضل وحكمة، لا استحقاق آلي. قد يكون الخير في عمل تمضي فيه، أو في باب يصرفك عنه، ولا تملك دائماً أن تعرف أيهما لحظة الوقوع.

التيسير: تهينة ليسرى لا إلغاء للمشقة

قد يتيسر الخير بأن يتغير داخلك لا الخارج: يصير الاعتذار أهون من حفظ الكبر، أو الصبر أهون من الانتقام، أو طلب العلاج أهون من الإنكار. هذا تيسير حقيقي ولو بقيت الظروف ثقيلة.

¹ الطباطبائي، الميزان، ج10، ص376، في التوفيق بوصفه تأليف الأسباب المؤدية إلى الخير؛ وج20، ص303 في تيسير اليسرى؛ وج9، ص38 في تفسير ﴿وما رميت إذ رميت﴾.

وقد يتيسر الخارج بأسباب عادية: شخص يفتح باباً، أو نظام يحفظ الوقت، أو مهارة نتعلّمها. لا تقسّم العالم إلى «روحي» و«مادي»؛ تهیئة الله تجري في الاثنين، والأسباب العادية من عطائه.

واليسر ليس دائماً ما تحبه الآن. التعليم المتدرج أيسر من الجهل في المال، وإن كان أثقل في اللحظة. لذلك يُقرأ التيسير في ضوء اليسر: الطريق الذي يقرب إلى الخير، لا الطريق الأقصر إلى الرغبة.

قال تعالى: ﴿فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى﴾ [الليل: 7]. التيسير أن يهيئ الله الإنسان أو الطريق لليسر، لا أن تختفي كل صعوبة. قد يبقى الجبل، لكن يتضح الممر؛ وقد يبقى الألم، لكن لا يقطع الوجهة.

لا نقول: حين يصفو الداخل يلين الواقع. قد يصفو قلبك ويبقى الظلم، وتصدق ويبقى المرض، وتحسن الاختيار ثم تخسر فرصة. التيسير قد يكون قوة على حمل الواقع والعمل فيه، لا إعادة تشكيل الخارج وفق رغبتك.

ولا يكون القلب الحاضر قارئاً لرسالة خفية في كل عقبة. الحضور يعطيك معياراً للعمل والتواضع أمام ما لا تعلم، لا علم الغيب. تبحث عن السبب، وتستشير، وتستخير، ثم تتحمل مسؤولية قرارك وتتعلم من نتيجته.

﴿وما رميت إذ رميت﴾: فعل حقيقي وأثر يتجاوز القدرة

قال تعالى في بدر: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]. وتوقف عند الجمع في الآية: أثبت القرآن للنبي فعل الرمي من جهة المباشرة، ونسب إلى الله الأثر الخاص الذي تجاوز القدرة البشرية في تلك الواقعة.

لا تجعل الآية شعاراً ينفي آثار الأسباب البشرية. أنت تفعل حقيقة، وقد يترتب على فعلك أثر معتاد. لكن الله هو الذي وهب القدرة، وأقام الأسباب، وأبقى أثرها، وقد يفتح لفعلك من الثمرة ما لا تبلغه قوتك.

المعية واللفظ وحدود قراءة الأحداث

العبد الحاضر لا يطلب تحويل كل مصادفة إلى علامة. الاستخارة ليست تنجيماً، والرؤيا ليست تشريعاً، والشعور بالانشراح ليس دليلاً كافياً وحده. الله أعطاك حياً وعقلاً وأسباباً، فلا تترك الواضح طلباً لإشارة غامضة.

وحسن الظن ليس اعتقاد أن النتيجة التي اخترتها ستقع، بل الثقة بأن الله لا يظلمك، وأن باب العبودية مفتوح في كل نتيجة. قد تحزن على ما فاتك، وتتعلم منه، ولا تُسئ الظن بالله.

والمعية الخاصة لا تمنع أن يواجه المؤمن خوفاً أو خسارة. قرب العبودية يصف توجه العبد إلى الله، والمعية الخاصة تصف عناية الله به؛ وليست بُعداً ثالثاً في القرب ولا نتيجة آلية ولا حصانة من سنن الدنيا. معناها التثبيت والهداية والرعاية بحسب الحكمة، والأنبياء أنفسهم مرضوا وحزنوا وأوذوا، وكان الله معهم.

وقد يظل معنى بعض الأحداث مجهولاً حتى النهاية. النضج أن تحتمل هذه المساحة من غير أن تملأها بسوء ظن أو ادعاء. تقول: لا أعلم لماذا، لكنني أعلم ما علي الآن.

المعية العامة وصف لعلاقة الله بجميع خلقه من جهة العلم والإحاطة والقيومية، أما المعية الخاصة فهي عناية وهداية وثبوت ونصر يفيضها الله على عباده في مسار الاستجابة والعبودية بحسب حكمته ووعدده. وقد يجد العبد أثر هذه المعية في سكينته أو وضوح أو ثبات، لكن غياب الشعور لا يعني غياب الله.

واللطف ما يقرب العبد إلى الطاعة ويبعده عن المعصية من غير إكراه. قد يظهر في فتح، أو منع، أو تنبيه، أو شخص. لكننا لا نجزم أن كل باب مغلق حماية مخصصة، ولا أن كل لقاء رسالة. نرجو اللطف، ونشكر ما تبين، ونسكت عما لا نعلم.

وقصة موسى مع العبد الصالح تعلمنا أن وراء الظاهر حكماً قد لا نخطط بها، لكنها لا تمنحنا سلطة تفسير كل حدث على شاكلتها. واجبنا أن نحكم بما ظهر من حق وسبب، وأن نترك لله ما لم يكشفه.

حين تنفذ الأسباب

قد تبلغ لحظة لا يبقى فيها سبب في يدك. هنا لا يصبح العجز فضيلة في ذاته، ولا يعني أنك مختار لمقام خاص. إنه يردك إلى حقيقة كانت قائمة منذ البداية: الأسباب كلها محدودة، والعبد مفتقر حتى وهو قوي.

في قصة موسى والبحر قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]. لم يتكر الخطر، ولم يملك بعد صورة النجاة، لكنه ثبت على وعد الله. ثم جاء الأمر بفعل: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: 63]. قف عند الترتيب: معية أولاً، ثم سبب يؤمر به، ثم فتح من الله.

هذا هو التوازن: لا تتوقف عن العمل ما دام في يدك سبب، ولا تعبد السبب كأنه يملك النتيجة. وإذا انتهى ما تستطيع، لم تنته العبودية؛ يبقى الدعاء، والصبر، وطلب العون، والتسليم بما خرج عن قدرتك.

خاتمة الفصل: قوة الافتقار

الافتقار الواعي لا يضعف المبادرة؛ يطهرها. تعمل لأن العمل أمانة، لا لأنك تملك الكون. وتخطط لأن السبب مطلوب، لا لأن الخطة قدر نافذ. وتعلم من الفشل من غير أن تجعل نفسك إله النتيجة.

ومن عرف أنه محمول، عرف أيضاً أن غيره محمول بطرق لا يراها. يقل حكمه على الناس، ويزداد شكره لمن أعانه، ويفهم أن نجاحه شبكة من نعم وأيدٍ وأسباب، لا قصة فردية خالصة.

المدد التشريعي يقول: هذا هو الطريق. والمدد التكويني يهين ويعين ويثبت. وكلاهما من لطف واحد، لا يقهر الإنسان ولا يتركه مستقلاً.

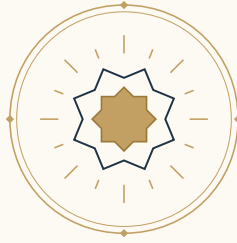
أعظم ما يبلغه العبد هنا ليس وهم القوة المطلقة، بل إدراك أنه محمول. يسعى بكل ما أوتي، ويعرف أن القدرة عطاء، وأن ثمرة السعي ليست ملكاً خالصاً له. فيسقط عنه العجب من جهة، والقعود من جهة أخرى.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]. مشيئتك حقيقية، لكنها قائمة بمشيئته، لا مستقلة عنها. وهذا لا يحو ذاتيتك، بل يضعها في موضعها: ذاتية عبد مسؤول، يبلغ كماله بصدق وعيه بافتقاره واستجابته في العبودية.

بهذا تكتمل صورة التكوّن: فطرة وهداية، واختيار وعمل، وبيئة واحتكاك، وشاكلة وتشكّل، وتوبة تصحح، ومدد يسبق السعي ويصحبه ويتجاوزه ويفتح إمكان ثمرته. ولا يبقى إلا أن نجتمع الخيوط في المقام الذي سميناه الصديقية.

وقفة تأمل

استحضر موضعاً بذلت فيه سببك ثم لم تملك النتيجة. أين ينتهي واجبك فعلاً؟ وما الذي تستطيع أن تفعله الآن من غير وهم سيطرة ولا استسلام؟ وكيف يتغير عملك إذا عرفت أن افتقارك إلى الله لا يلغي مسؤوليتك، بل يحررها من العجب والخوف؟



الخاتمة

الصدقية: الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي

حين تجتمع الخيوط

حين تبلغ نهاية هذه الرحلة، لا يكون الذي تغير فيك أنك أضفت معرفةً إلى معارفك، ولا مهارةً إلى مهاراتك. الذي يتغير أعمق من ذلك: أن نتضح الوجهة، وثنقارب جهات نفسك بعضها من بعض، كما تجتمع خيوط الضوء المتفرقة في شعاع واحد. هذا الاجتماع هو الذي نطلبه في هذه الخاتمة، وله في لغة هذا الكتاب اسم: نصيبك من الصدقية.

من الصدق الذاتي إلى الصدقية

ذروة مسار الصدق الذاتي ليست أن تعرف أكثر، ولا أن تملك إرادةً أشد، ولا أن تعيش حالة وجدانية عابرة. الذروة أن تنال من الصدقية قدرًا تتصادق فيه جهات نفسك تحت الحق والعبودية. عندها تنحسر الفجوات التي

كنت تبناها بين ما عرفت، وما استقر في قلبك، وما نويته وقلته وفعلته. وتبقى الصدقية متدرجة؛ لا تستنفد جميع مقامات الإنسان، ولا نهاية فيها للازدياد من الصدق والمعرفة والعبودية.

وإذا التفت الآن إلى الطريق الذي قطعته، رأيت أن الفصول لم تكن محطات متجاورة يودّع بعضها بعضاً، بل خيوطاً تُنسج كلها نحو النقطة نفسها. بدأ الطريق من مقامك وأمانتك، ثم من الدنيا بوصفها رحماً ثانياً لتكون فيه نفسك. ورأيت أن العبادة حق لله وتجسيد للعبودية، ومن حكمها وآثارها أنها تزكي النفس؛ وأنتك نفس واحدة تُقرأ من جهات الجسد والقلب والعقل والروح، تتحرك داخل سنن وأسباب وبيئات وأضداد.

ثم كشف الاحتكاك ما في النفس، وظهرت الإرادة موضعاً للمسؤولية، والصدق الذاتي مساراً لتصادق الجهات تحت الحق والفطرة، وتضييق الفجوات من آلياته، والشاكلة صورةً لما ترسخ، والتوبة تصحيحاً للحركة، والمدد الإلهي أصلاً يسبق السعي ويصحبه ويفتح له إمكان الثمرة.

وهكذا لا تكون الصدقية فصلاً زائداً على الرحلة، بل اجتماع خيوطها في إنسان واحد: الفطرة واضحة، والوجهة إلى الله، والقلب لا يتبنى نقيض ما عرف، والعقل لا يتحول إلى حيلة، والجسد يترجم العبودية في الحياة.

صورتك الوجودية المكتسبة

هذه الصورة ليست لقطة جامدة تُغلق قبل الموت بسنوات. ما دمت حياً، يمكن للمعرفة أن تتسع، وللتوبة أن تعيد الوجهة، وللعمل المضاد أن يضعف ملكة قديمة. الثبات لا يعني الانغلاق، بل أن الاتجاه الغالب صار واضحاً.

ولا تعرف أنت صورتك كلها. قد ترى في نفسك فضيلة لا يصدقها الموقف، أو تحتقر عملاً صغيراً له عند الله وزن. لذلك تبقى بين الرجاء والخوف، وتطلب من الله حسن الخاتمة، ولا تجعل تحليل الذات بديلاً عن حكمه.

أنت لست قائمة من الصفات، ولا ذاتاً محايدة تقف خارجها. أنت نفس واحدة متشخصة بوجودها؛ وما يربخ فيها من حكمة ومعرفة وإرادة ومحبة ويقين وطمأنينة يصير صورتها الوجودية المكتسبة.

ليست كل صفة عابرة هي أنت، ولا كل ما وُلدت به حكماً نهائياً عليك؛ لكن ما تعرفه وتريده وتكرره حتى يصير ملكة لا يبقى خارج نفسك. لا تحمل صفاتك معك كما تحمل أمتعتك؛ بل تمضي بما صرت إليه.

وتوقف عند هذا الفرق، فعليه مدار الخاتمة كلها: المعرفة والإرادة والقوة قد تكون كمالات وجودية جزئية، لكنها لا تصبح فضائل تامة أو قرباً إلا بوجهة الاستجابة إلى الحق. فالمعرفة تحتاج إلى الحق، والإرادة إلى العبودية، والقوة إلى العدل، واليقين إلى بصيرة؛ وإلا تحولت القدرة إلى شاكلة أشد انحرافاً.

النفس المطمئنة: سكينة الوجهة

الطمأنينة ليست هدوءاً خارجياً تفرضه الظروف، وليست غياب الألم؛ إنها سكينة الوجهة: أن يعرف قلبك إلى من يرجع، فلا تنتزع العواصف من مرساه. وهي في لغة هذا الكتاب مقام قلبي تكويني متدرج، ينشأ من رسوخ معرفة الله وذكره والعبودية له، ومن استقرار مرجعية النفس إليه؛ ثمرة أصيلة ومظهر حقيقي من مظاهر القرب. ويسهم تصادق الجهات واجتماع النفس في ازديادها وثباتها، لكنه ليس علتها الوحيدة؛ فقد يبقى الخوف والحزن

حاضرين من غير أن ينتزعا الوجهة من القلب. وتأمل رقة الخطاب الذي
خوطبت به هذه النفس: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 27-28].

وتبلغ الطمأنينة في مسار الصدق والصدقية مراتب رفيعة، وتبقى تنمو بقدر
رسوخ مرجعية النفس إلى الله. وقد تحزن النفس على فقد، وتخاف خطراً،
وتطلب علاجاً، وتقاوم ظلماً؛ لكن المشاعر لا تقطع صلتها بالله ولا تحول الألم
إلى رب جديد.

والرضا سكون القلب إلى الله وانتفاء السخط عليه فيما قضى وقدر؛ من غير
حبة الألم لذاته، ولا قبول الظلم، ولا ترك ما بقي داخل الوسع من علاج
وإصلاح. تبذل السبب، وتكره الضرر، وتدعو بكشفه، ثم لا تجعل ما خرج
عن قدرتك خصومة دائمة مع الله.

القوة التي تولد من الوحدة

وفي قمة الرحلة يظهر المعنى التوحيدي الذي يحفظ ذاتيتك من طرفي المحو
والاستقلال: أنت قائم بالله، مفتقر إليه في أصل وجودك وبقائك وآثارك،
ومع ذلك تبقى ذاتاً مخلوقة مسؤولة، تعرف وتختار وتعمل وتلقى الله بما صار
إليه وجودها.

ومع مضيك في طريق الصدق الذاتي، وبالهداية والتزكية والمدد، لا يتغير
سلوكك وحده؛ تزداد جهات نفسك تصادقاً واجتماعاً، ويقل تشتتها وتنازعها،
فتزداد طمأنينتها وثباتها، ويترسخ نصيبك من الصدقية؛ فتظهر فيك القوة
والرضا، وتبلغ ذاتيتك كلها الإنساني في العبودية لله. وفي التعبير الصدري

يمكن وصف هذا الاجتماع بازدياد البساطة الوجودية؛ وهو وصف فلسفي تابع، ويبقى تصادق الجهات واجتماع النفس التعبير الأقرب في هذا الكتاب.¹

ومن هذا الاجتماع تنبع قوة داخلية أوسع في حدود الإنسان ومعطاه، لأن طاقته تقل هدرًا في الفجوات والتناقض. ولاحظ أنها ليست قوة استغناء، بل قوة افتقار وإع تستمد ثباتها ومددها من الله؛ وليست انفصالًا عن العالم، بل قدرة أكبر على دخوله بالحق والثبات والرحمة.

حضور القلب مع الله

علامة حضور القلب مع الله ليست كثرة الألفاظ الروحية، بل أثر الحضور في الحق. هل يمنعك علم الله بك من ظلم من لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟ هل يعيدك إلى الاعتذار؟ هل يجعل العمل المتقن عبادة حتى حين لا يراك أحد؟

وقد تكون حاضر القلب في لحظة تعب بلا لذة، لأنك اخترت الأمانة. وقد تكون غافلاً في لحظة وجد إذا شغلك الشعور بنفسك عن الله. هذا الحضور علاقة ووجهة، لا مزاج يقاس بحرارة التجربة.

ومع رسوخ الصدق يشتد حضور القلب مع الله في قلب الحياة. ويقرأ العبد قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] تذكيراً بعلم الله وقيوميته وإحاطته التي لا يغيب عنها باطنه؛ فالقرب ثابت، والذي يغيب ويحضر هو وعي العبد بهذه الحقيقة واستجابته لها. و«الحضرة» تعبير أدبي عن حضور القلب، لا مقاماً مستقلاً ولا قرباً مكانياً.

¹ صدر المتألهين، «الأسفار»، ج3، ص 17 وما بعدها، ومباحث النفس في ج 8 وح 9؛ وانظر: الطباطبائي، «الميزان»، ج1، ص 208، وح 2، ص 436.

وليست «الحضرة» مكاناً، ولا حلولاً أو اتحاداً، ولا كشفاً دائماً، ولا حرارة شعور لا تنقطع. هي أن تستحضر عبوديتك وعلم الله بك، فيرافق هذا الاستحضار نيتك وقولك وعملك. قد يقوى حضورك ويضعف، وقد تغفل ثم تعود.

ويتحقق هذا الحضور في السوق والبيت والعمل والعلاقة والابتلاء. تدخل العالم بقلب يعرف لمن يعمل، وبأي ميزان يختار، وإلى من يرجع؛ لا تنسحب من الأسباب، ولا تعبد النتائج. وتستحضر مقام الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.¹

ولا تمنحك الحضرة تفسيراً خفياً لكل حدث. تطلب الحكمة من غير ادعاء، وتحسن الظن بالله من غير أن تنسب إليه رسالة لم يقم عليها دليل، وتعود إلى الحق كلما اتسعت فيك فجوة أو مالت وجهتك.

الرجوع إلى الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: 8]. الرجوع إلى الله في المآل حقيقة المسير، أما التوبة في الدنيا فرجوع اختياري من الغفلة إلى الذكر، ومن الانقسام إلى الصدق، ومن عبودية الصورة والنتيجة إلى عبودية الله. ليس كل سائر إلى اللقاء تائباً، تصدق التوبة بترك الانحراف والإصلاح داخل الوسع. وحين تتضح الوجهة، ترى الدنيا معبراً، والزمن مجالاً للتكوّن، والموت انتقلاً لا جدار نهاية.

¹ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث جبريل، في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

لا تعود إلى «نفسك» بوصفها غاية موازية لله؛ تعود إلى الله، فتجدد الوفاء بمقتضى ميثاق فطرتك. لا تستعيد ذاتاً مكتملة مخفية، بل تزكي النفس نفسها التي تحمل تاريخك. وكل توبة صادقة تجدد الاتجاه، وكل عمل صالح يشارك في ترسيخه؛ وما يرسخ فيك يدخل في الصورة التي تحملها، وأنت الشخص نفسه بإبقاء الله.

وحين نتعثر، لا يلزم أن تبدأ من عدم؛ باب التوبة يمنع الماضي من أن يصير قدرك. وحين تضعف، لا يلزم أن تدعي القوة؛ الافتقار نفسه باب المدد. وحين لا تفهم، لا يلزم أن تختلق تفسيراً؛ يكفي أن تعمل بما ظهر لك من حق، وتترك لله ما غاب.

ومما يهون الطريق أن الذي تعود إليه أرحم بك من نفسك. قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: 160]، وقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53]، بل يفتح للتوبة والإيمان والعمل الصالح باباً أوسع: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: 70]. لا يصير الذنب خيراً في ذاته، لكن رحمة الله تمنع السقوط من أن يكون الكلمة الأخيرة. فالعودة ليست وقوفاً أمام حساب بارد يحصي الزلات، بل إقبال على كرم يستقبل المقبل بأكثر مما يستحق. ومن عرف أن منتهاه إلى هذا الكرم، هان عليه أن يقطع الطريق.

آخر الرحلة: عودٌ إلى أول سؤال

بقي أن نعود إلى السؤال الذي فتحنا به هذا الكتاب: إن كنت بذلك المقام في كتاب الله، فلماذا تشعر بهذه الضالة في يومك؟ لعلك الآن تملك من الجواب

ما لم تكن تملكه: الضالة لم تكن مقامك، بل غربة عن مقامك؛ ولم تكن حقيقتك، بل فجوة بين ما خلقت له وما تعيشه. وكلها تصادقت جهات نفسك تحت الحق، ضاقت تلك الفجوة، وعاد اليوم العادي نفسه — بقهوته واجتماعاته وزحامه — ميداناً يتكوّن فيه عبد يعرف إلى أين يمضي.

ولذلك لا تختم القراءة بسؤال: «هل اكتملت؟». اسأل سؤالاً أصدق: هل اتضحت وجهتي؟ وما الفعل الذي أستطيع اليوم أن أجعله ترجمة لهذه الوجهة؟ فهذه الذروة لا تُنال بدعوى، بل بطريق من الصدق والعودة والعمل والمدد.

هكذا تنتهي رحلة الكتاب؛ لا بوعد أن الحياة ستلين دائماً، ولا بأن المشاعر ستسكت، بل ببوصلة: أن تعرف أي صورة إنسانية تتشكّل فيك، وأن تجعل وجهتك إلى الله، وأن تسهم بصدق، داخل ما أقدرك الله عليه، في تشكيل شاكلتك وصورتك الوجودية. فالله يخلق ويهدي ويمد ويوفق، وأنت تستجيب وتختار وتعمل؛ ومن هذا التفاعل تتكوّن الصورة التي تحملها. وتستمر أنت بهويتك، حاملاً ما تكون فيك، بإبقاء الله الذي خلّقك وأبقاك وفتح لك الطريق.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ

مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

[القمر: 54-55].

قف عند التسمية الأخيرة في كتاب الله لهذا المستقر: مقعد صدق — فن صدق في الطريق إلى الله، ناسب أن يكون «مقعد الصدق» خاتمةً تليق

بطريقه. وعند ملك مقتدر — فلا استقلال للذات في بدايتها ولا بقائها ولا
منتهائها؛ إنما كلها أن تكون عبداً صادقاً، حاضر القلب، مطمئن الوجهة، يعود
إلى الله بما صار إليه.



كشاف مفاهيم الكتاب

هذا الكشاف لا ينشئ معجماً مستقلاً للكّاب؛ بل يقدّم صيغاً قارئية موجزة للقضايا المركزية، ولا تحل هذه الصيغ محل التعريفات الحاكمة في المعجم المرجعي الملحق بكّاب «نظرية النشأة الإسلامية».

♦ الأبعاد الأربعة

جهات متداخلة نقرأ بها حضور النفس الواحدة وعملها في نشأتها الدنيوية: الجسد، والقلب، والعقل، والروح؛ وهي منافذ تحليل لا أجزاء أو ذوات متجاوزة. راجع الفصل الثالث.

♦ البدن والجسد

البدن مرتبة الإنسان الجسمانية ومجال تلقيه وفعله؛ والجسد اسمه الوظيفي داخل نموذج الأبعاد حين ننظر إلى الحضور المتجسد والفعل. راجع الفصل الثالث.

♦ البدن أمانة

مبدأ يقرر أن بدن الإنسان جزء من وجوده الدنيوي ومجال فعله، وقد أئتمنه الله عليه؛ فيلزمه حفظه ورعايته وتميئة قدرته واستعماله في الحق، من غير تأليه له أو إهمال لحاجاته. راجع الفصل الثالث.

♦ البيئة التكوينية

شبكة الظروف والعلاقات والرسائل والنماذج والحوافز والفرص والعوائق التي تسهم عبر الزمن في تكون الإنسان كله، من غير أن تحدده حتماً أو تلغي فاعليته. راجع الفصل الخامس.

♦ التزكية والنمو التزكوي

التزكية تطهير للنفس من الحجب والردائل، وتنمية لقواها وكالاتها، وإعادة توجيهها نحو الحق والعبودية بهداية الله ومدمه؛ والنمو التزكوي نمو هذه القوى في استجابة إيجابية للحق. راجع الفصلين الثاني والسابع.

♦ التحقق الكمالي

ما صار كيفية فعلية في النفس من علم وفهم وإرادة وملكات وقوى؛ وهو أعم من الفضيلة الأخلاقية التامة، لأن الوجهة تحدد قيمته. راجع الفصل الرابع.

♦ التحول العميق

تغير داخل عملية التكوّن يمس البنية الحاكمة للنفس فيغير ما يصير إليه الإنسان، لا سلوكه الظاهر وحده؛ وقد يتجه إلى الكمال أو النقص. راجع الفصل السابع.

♦ تجسد الأعمال والجزاء الأخروي

المعارف والنيات والأعمال والملكات تدخل في تكوّن النفس، وتظهر حقائقها وآثارها في الآخرة بإظهار الله وحكمه؛ من غير أن يكون الجزاء آلية مستقلة أو أن يجيز الحكم على المصائر. راجع الفصل السابع.

♦ التكوّن

الضرورة الفعلية المستمرة التي يصير بها الإنسان، عبر الزمن، إلى ما هو عليه وما سيصير إليه. ويستعمل «التشكّل» وصفاً عادياً لتشكّل عادة أو ملكة أو شاكلة. راجع الفصلين الأول والسابع.

♦ التوبة

رجوع النفس إلى الله والحق بعد انحراف انكشف لها، بالاعتراف والندم والإقلاع والعزم والإصلاح بحسب الشرع والوسع. وقد تصدق التوبة قبل زوال آثار العادة أو الألم؛ ولا ينغلق بابها بفسوخ الانحراف. راجع الفصل السابع، «التوبة والمحاسبة: تصحيح الحركة وتجديد الوجهة».

♦ الاستقامة

ثبات الوجهة على الحق والعبودية مع التدرج والتوبة والتصحيح؛ لا اشتراط اكتمال العادة أو زوال المشقة قبل السير. راجع الفصل السابع، «التوبة والمحاسبة: تصحيح الحركة وتجديد الوجهة».

♦ الحركة الجوهرية

مبنى فلسفي صدرائي تستفيد منه النظرية بوصفه تفسيراً مسانداً لإمكان أن يبلغ التغير كيفية النفس؛ ولا يكون قبوله شرطاً لقبول التكوّن أو التزكية أو التوبة. راجع الفصل السابع.

♦ الحضرة

تعبير عرفاني أدبي تابع يُراد به حضور القلب مع الله، ووعي العبد بأنه قائم به وتحت نظره وهو يعيش ويعمل في العالم؛ ولا يدل هنا على مكان أو حلول أو مقام مستقل في النموذج. راجع الخاتمة.

♦ الرحم الثاني

استعارة تفسيرية خادمة تصف الدنيا طوراً يتكوّن فيه الإنسان لما بعد الموت؛ ووجه الشبه التكوّن داخل طور محدود، والإنسان فيها فاعل مختار لا جنين سلمي. راجع الفصل الأول.

♦ الذات الخالدة

الشخص الإنساني الواحد الذي تكون نفسه ملاك هويته، ويستمر بعد الموت بإبقاء الله حاملاً ما تكوّن فيه؛ لا الصورة الوجودية وحدها ولا ذاتاً مستقلة عن الله. راجع صفحة المشروع والفصل السابع.

♦ الشاكلة

البنية الداخلية النفسية والخلقية ذات الرسوخ النسبي التي تجعل بعض طرائق الإدراك والاستجابة والعمل أقرب إلى الصدور من غير أن تجبر الإنسان؛ والملكة صفة راسخة داخلها. راجع الفصل السابع.

♦ الصدق الذاتي

مسار تكويني متدرج تتصادق فيه جهات النفس الأربع تحت مرجعية الحق ومقتضى الفطرة؛ وتكون المواجهة والمحاسبة وكشف الفجوات والتوبة والإصلاح من آلياته. راجع الفصل السادس، «الصدق الذاتي: تصادق جهات النفس تحت الحق والفطرة»، في صلته بالوفاء بالميثاق؛ و«طريق الصدق: كشف، ثم قرار، ثم تكرار»، في الفرق بين التنبه وتبين الحق.

♦ الصديقية

الذروة المتدرجة لمسار الصدق الذاتي، وفيها يبلغ تصادق جهات النفس وانتظامها تحت الحق والعبودية أعلى مراتبه؛ ولا تعني العصمة عند غير المعصوم ولا تبيح تصنيف الأشخاص. راجع الفصل السادس والخاتمة.

♦ الصورة الوجودية المكتسبة

الحاصل الكلي المتراكم لما صارت إليه النفس من معارف ومحبات ونيات وقوى وملكات ووجهة؛ وهي غير الشخص الذي يستمر حاملاً لها، ولا تعني أن الإنسان اختار جميع أسبابها. راجع الفصلين الرابع والسابع.

♦ العبادة

التجسيد القصدي والعملي للعبودية في الشعائر والطاعات والأعمال المشروعة المتوجه بها إلى الله. راجع الفصلين الثاني والثامن.

♦ العبادة المتجسدة

صدور العبادة عن النفس الواحدة بقصدها وإيمانها، وتجسدها ببدنها في الصورة الشرعية والعمل المشروع؛ فلا باطن يغني عن الامتثال، ولا ظاهر يثبت وحده كمال الباطن. راجع الفصل الثامن.

♦ الهلع والجزع والمنع

يقرأ الكتاب آيات المعارج في قابلية القوى لسوء التوجيه وتهذيبها، مع استثناء المصلين بأوصافهم من عبادة وبذل وأمانة وعهد. ولا يُعدّ كل خوف أو حزن انحرافاً. راجع الفصل الثاني، «الحاجب الثاني: حين تؤدي العبادة دون أن تعاش».

♦ العبودية

الوجهة الواعية المختارة التي يكون فيها الله رب الإنسان ومرجعته الأعلى وغاية سعيه. راجع الفصلين الثاني والثامن.

♦ الاتساع الأداتي

ما بقي قابلية أو مورداً أو ظرفاً يوسع مجال الفعل، كالمال والمنصب والفرصة والقدرة الأولية، من غير أن يكون كيفية فعلية في النفس. راجع الفصل الرابع.

♦ الافتقار الوجودي

حقيقة عامة لكل مخلوق في أصل وجوده وبقائه وآثاره؛ والفضل في صدق وعي الإنسان به واستجابته العبودية، لا في أصل الافتقار وحده. راجع الفصل الثامن.

♦ القابلية، والاستعداد، والقدرة الفعلية، والوسع

القابلية مجال الإمكان النبوي، والاستعداد مدى تهيئه، والقدرة الفعلية ما يستطيع الإنسان فعله أو تركه الآن، والوسع ما تقوم عليه مسؤوليته في ظرفه مع ما يستطيع تهيئة أسبابه. راجع الفصل الرابع.

♦ القرب من الله / قرب العبودية

حركة غير مكانية يتفاعل فيها ما يتحقق في النفس من كمالات مع استجابتها للحق والعبودية؛ ولا تُقاس بظاهر واحد ولا يُحكم بها على البواطن. راجع الفصلين الأول والثامن.

♦ الكدح

الحركة الوجودية الملازمة للإنسان عبر الزمن نحو لقاء الله ومآله عنده؛ لا يساوي السعي الاختياري أو المشقة أو النمو الإيجابي، وإنما تتحدد كيفية ما يصير إليه الإنسان بوجهة استجابته. راجع الفصلين الأول والخامس.

♦ الفطرة

نحو مخصوص من خلقة الإنسان يتضمن أصلاً حضورياً إجمالياً للحق، وحباً أصيلاً للكمال، واتجهاً إلى العبودية؛ وليست معرفة حصولية تفصيلية، وتحتاج إلى الوحي والعقل والتزكية. راجع الفصل الثالث.

♦ الميثاق وميثاق الفطرة

الميثاق إشهاد على الربوبية وإقرار وحجة. وفي قراءة المشروع، تصف الفطرة والميثاق الحقيقة التوحيدية من اعتبارين: أصل الخلقة، والإشهاد والحجة؛ لا على جهة الترادف أو حسم كيفية الميثاق. راجع الفصل الثالث، «الروح والفطرة».

♦ العهد والصراط المستقيم

يُقرأ عهد عبادة الله واجتناب الشيطان مقتضى عملياً للإقرار بربوبيته، وعبادته طريق هذا الوفاء؛ مع حفظ خصوصية سياقات العهد. راجع الفصل الثالث، «الروح والفطرة».

♦ المحاسبة

نظر صادق ومقصود تكشف به النفس موضعها ومسارها، وتعرف موضع الشكر أو التقصير أو الإصلاح أو التوبة. راجع الفصل السابع.

♦ المدد الإلهي

هداية الله وعونه وثبتيته وتبليته للأسباب وفتح إمكان الثمرة، بما يسبق السعي ويصعبه ويتجاوزته، من غير أن يلغي الفعل أو يضمن النتيجة التي يريدها الإنسان. راجع الفصل الثامن.

♦ المعية العامة والخاصة

العامة علم الله وإحاطته وقيوميته لجميع خلقه، والخاصة عنايته وهدايته وثيبته لعباده في مسار العبودية؛ وليست بعداً ثالثاً في القرب ولا ضماناً للنجاح الدنيوي. راجع الفصل الثامن.

♦ النفس

الحقيقة الإنسانية الشخصية الواحدة؛ صاحب الإدراك والقصد والاختيار والعمل، وفيها تتفاعل المعارف والمحبات والنيات والعادات والملكات، وهي التي تتكوّن وتحمّل أثر ما وقع عليها وما صدر عنها. راجع الفصل الثالث.

♦ وحدة النفس وتعدد جهات فعلها

الإنسان نفس شخصية واحدة تعمل من جهات متداخلة، وليست مجموعة ذوات أو أجزاء مستقلة. راجع الفصل الثالث.

♦ انسجام الجهات وآثاره

تصادق جهات النفس واجتماعها تحت الحق والفطرة؛ فيقل التشّت والتنازع والمحجّب، وتزداد الطمأنينة والثبات والاستقرار، وتتسع قدرة النفس على تذوق خير الوجود؛ وهو وجه من وجوه سعادتها. وعلى المبني الصدراي تبقى «البساطة الوجودية» وصفاً فلسفياً تابعاً. راجع الفصلين الثالث والسادس.

♦ الوجهة

الاتجاه الغالب الذي تتخذه حركة النفس عبر الزمن نحو ما تتخذه مرجعاً وغاية، كما تكشفه نياتها واختياراتها وأعمالها وموقفها من المراجعة والتوبة؛ وليست الغاية التي تعلنها فقط. راجع الفصل السابع.

♦ الإرادة وقوتها وصدقها

الإرادة حسم النفس لفعل ممكن والتوجه إلى إيقاعه داخل الوسع؛ وقوتها مقدار الثبات، وصدقها جهة الثبات. وهي كمال جزئي لا فضيلة تامة بذاتها. راجع الفصل السادس.

♦ الطمأنينة

مقام قلبي تكويني متدرج ينشأ من رسوخ معرفة الله وذكره والعبودية له واستقرار مرجعية النفس إليه؛ وهي ثمرة أصيلة ومظهر للقرب، لا هدوءاً انفعالياً ولا مقياساً لترتيب الناس. راجع الفصل الثاني والخاتمة؛ وانظر الفصل الأول في الضنك، والفصل الخامس في حدود قراءة الألم.

♦ المعيشة الضنك

من وجوه بيانها ضيق متصل بالإعراض واستبداد التعلق، وقد يقع مع سعة الموجودات؛ لا حصر للآية في هذا الوجه، ولا تفسير لكل معاناة. راجع الفصل الأول، «لماذا لا يكفيك هذا العالم؟».

♦ العذاب الأدنى

يُفسَّر في «الميزان» و«الأمثل» بعذاب دنيوي تبقى معه فرصة الرجوع. ويقترح الكتاب إدراج بعض ضيق الإعراض ضمن مصاديقه على جهة الجمع التفسيري، لا القطع أو التشخيص. راجع الفصل الخامس، «الألم قد يفتح، لكنه لا يضمن».

♦ الرضا

سكون القلب إلى الله وانتفاء السخط عليه، من غير محبة الألم أو قبول الظلم أو ترك العلاج والإصلاح. راجع الخاتمة.



قائمة مراجع مختارة

- القرآن الكريم.
- ابن شعبة الحراني. «تحف العقول عن آل الرسول».
- ابن طاووس، علي بن موسى. «إقبال الأعمال»؛ و«اللهوف في قتلى الطفوف».
- البخاري، محمد بن إسماعيل. «الجامع الصحيح».
- الصدوق، محمد بن علي بن بابويه. «الأمالي».
- الطبرسي، رضي الدين أبو نصر الحسن بن الفضل. «مكارم الأخلاق».
- الطباطبائي، محمد حسين. «الميزان في تفسير القرآن».
- الراغب الأصفهاني. «مفردات ألفاظ القرآن».
- الغزالي، أبو حامد. «إحياء علوم الدين».
- الكليني، محمد بن يعقوب. «الكافي».
- المجلسي، محمد باقر. «بحار الأنوار».
- مسلم بن الحجاج. «الصحيح».
- مطهرى، مرتضى. «العدل الإلهي».
- صدر المتألهين الشيرازي. «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة».
- النجيني، روح الله. «الأربعون حديثاً»؛ و«آداب الصلاة».
- مكارم الشيرازي، ناصر، وآخرون. «الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل».
- الشريف الرضي، جمع. «نهج البلاغة».

Schumacher, E. F. Small Is Beautiful: A Study of Economics as if People Mattered. London: Blond & Briggs, 1973.

- Wood, W., Quinn, J. M., & Kashy, D. A. "Habits in Everyday Life: Thought, Emotion, and Action." *Journal of Personality and Social Psychology* 83(6), 2002, 1281–1297. DOI: 10.1037/0022-3514.83.6.1281.
- Wood, W., & Rünger, D. "Psychology of Habit." *Annual Review of Psychology* 67, 2016, 289–314.
DOI: 10.1146/annurev-psych-122414-033417.
- International Association for the Study of Pain. "IASP Announces Revised Definition of Pain." 16 July 2020. Raja, S. N. et al. "The Revised International Association for the Study of Pain Definition of Pain: Concepts, Challenges, and Compromises." *PAIN* 161(9), 2020, 1976–1982. DOI: 10.1097/j.pain.0000000000001939.
- Frazier, P., Tennen, H., Gavian, M., Park, C., Tomich, P., & Tashiro, T. "Does Self-Reported Posttraumatic Growth Reflect Genuine Positive Change?" *Psychological Science* 20(7), 2009, 912–919.
DOI: 10.1111/j.1467-9280.2009.02381.x.
- Henson, C., Truchot, D., & Canevello, A. "Factors that Hinder Post-Traumatic Growth: A Systematic Review." *L'Encéphale* 48(5), 2022, 560–562. DOI: 10.1016/j.encep.2022.02.001.
- World Health Organization. "How do vaccines work?" 25 February 2025.
- McDonald, R. I., & Crandall, C. S. "Social Norms and Social Influence." *Current Opinion in Behavioral Sciences* 3, 2015, 147–151.
DOI: 10.1016/j.cobeha.2015.04.006.
- Laursen, B., & Veenstra, R. "Toward Understanding the Functions of Peer Influence: A Summary and Synthesis of Recent Empirical Research." *Journal of Research on Adolescence* 31(4), 2021, 889–907.
DOI: 10.1111/jora.12606.
- Candia-Rivera, D., Engelen, T., Babo-Rebelo, M., & Salamone, P. C. "Interoception, Network Physiology and the Emergence of Bodily Self-Awareness." *Neuroscience & Biobehavioral Reviews* 165, 2024, 105864. DOI: 10.1016/j.neubiorev.2024.105864.

Feldman, M. J., Bliss-Moreau, E., & Lindquist, K. A. "The Neurobiology of Interoception and Affect." *Trends in Cognitive Sciences* 28(7), 2024, 643–661. DOI: 10.1016/j.tics.2024.01.009.

Conselice, C. J., Wilkinson, A., Duncan, K., & Mortlock, A. "The Evolution of Galaxy Number Density at $z < 8$ and Its Implications." *The Astrophysical Journal* 830(2), 2016, article 83. DOI: 10.3847/0004-637X/830/2/83.

National Aeronautics and Space Administration (NASA). "Our Milky Way Galaxy: How Big is Space?" 2 April 2019; "What is the Universe?" 29 October 2024; "How Big is Space? We Asked a NASA Expert: Episode: 61," 21 May 2025; and "Hubble Reveals Observable Universe Contains 10 Times More Galaxies Than Previously Thought," 13 October 2016.



من أين تتابع القراءة؟

لا يفرض المشروع ترتيباً واحداً للقراءة. إن بدأت بكتاب من باب عملي أو إنساني، فانتقل إلى «المنظومة الفكرية الإسلامية» لفهم الأرض الرؤيوية، وإلى «نظرية النشأة الإسلامية» للرجوع إلى التعريفات والقوانين والنماذج الحاكمة. وإن بدأت بالمتن المرجعي، فستجد في «الذات الخالدة» توسعاً في صورة الإنسان، وفي «لا حدود» تطبيقاً ونقداً مقارناً، وفي «عش سعيداً» معاشة تديرية، وفي «رحلة كادح» تجسيداً سردياً. ويأتي دليل القارئ في مطلع كتاب «نظرية النشأة الإسلامية»، ويعينك معجمه المرجعي الملحق به على ضبط المصطلحات والانتقال إلى مواضع شرحها.

خريطة سريعة

① «المنظومة الفكرية الإسلامية» — الأساس الرؤيوي وموضع الشرح الكوني.

② «نظرية النشأة الإسلامية» — المتن المرجعي الضابط للنظرية.

③ «الذات الخالدة» — كتاب الإنسان وتكوّنه ومساره.

④ «لا حدود» — المنفذ الشعبي للقوانين والنقد المقارن.

⑤ «عش سعيداً» — منفذ التدبير والمعاشة.

⑥ «رحلة كادح» — منفذ التجسيد السردى.

ويضم كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» دليل القارئ إلى المشروع ومعجمه المرجعي؛ فيعرض الأول الخريطة ومسارات القراءة، ويضبط الثاني المصطلحات والإحالات.

رسالة المؤلف إلى القارئ

بدأت هذه الكتب من سؤال ظل يرافقتني: كيف يفهم الإنسان نفسه، ويتحرك في حياته، ويسير إلى الله من غير أن يفصل عن واقعه وعمله ومسؤوليته؟ حاولت في كل كتاب أن أقرب من جانب من هذا السؤال، مرةً بالتأصيل، ومرةً بالشرح، ومرةً بالتطبيق أو التدبر أو الحكاية.

لا أقدم هذه الأعمال بوصفها أجوبة مغلقة، بل اجتهداً بشرياً داخل الرؤية الإسلامية، يطلب الوضوح ويقبل المراجعة. وأرجو أن تكون الفكرة هي البتلة، وأن يبقى الدليل خادماً لها، واللغة طريقاً يصل بها إلى عقل القارئ وقلبه وعمله.

إتاحة المعرفة

يُتيح المؤلف النسخة الإلكترونية الرسمية من هذا الكتاب مجاناً للقراءة والتنزيل عبر مكتبته الإلكترونية: <https://abbasalhumaid.com/library/>، إيماناً بأن المعرفة تؤدي رسالتها حين تصل إلى من يحتاج إليها. وتشمل هذه السياسة جميع كتب المؤلف المعروضة في الموقع والموسومة بأنها متاحة للتنزيل المجاني.

ويُسمح بتداول الرابط الرسمي أو النسخة الكاملة غير المعدلة لأغراض غير تجارية، مع إثبات اسم المؤلف والمصدر. ولا يجوز إعادة تحرير الكتاب أو اختصاره أو ترجمته أو دمجها في إصدار آخر أو استعماله لأغراض تجارية من دون إذن مكتوب.

تُوفر أحدث نسخة من الكتاب، وسجل التصويبات والتحديثات، عبر المكتبة الرسمية. وإتاحة النسخة الإلكترونية مجاناً لا تعني بالضرورة مجانية النسخة الورقية، التي قد تباع لتغطية تكاليف الطباعة والتوزيع.

التصويبات والمراجعة

هذا الكتاب جزء من مشروع فكري قابل للمراجعة والتطوير. تُنشر التصويبات المؤثرة، وبيانات أحدث طبعة أو نسخة رقمية، في المكتبة الرسمية على <https://abbasalhumaid.com/library/>. ويمكن إرسال الملاحظات الموثقة، مع تحديد عنوان الكتاب والطبعة والصفحة والعبارة ووجه الملاحظة، عبر نموذج التواصل في الموقع. ويشكر أصحاب الملاحظات العلمية التحريرية التي تسهم في زيادة الدقة والوضوح.



عن المؤلف

عباس آل حميد

عباس آل حميد كاتب وباحث ومستشار استراتيجي عُماني. لازمته منذ سنواته الأولى أسئلة الإنسان والغاية: كيف يتكوّن الإنسان؟ وكيف تتحول المعرفة والإيمان والعمل إلى حركة واعية نحو الله؟ وكيف يجمع الإنسان بين عمق المعنى ودقة الفعل؟ ومن هذه الأسئلة المتصلة نشأ مساره في القراءة والكتابة والعمل.

وفي عام 2023، تشرف بالثقة السامية لحضرة صاحب الجلالة السلطان هيثم بن طارق المعظم - حفظه الله ورعاه - إذ صدر مرسوم سلطاني بتعيينه عضواً في مجلس الدولة بسلطنة عُمان للفترة 2023-2027. ويمثل هذا التكليف الوطني الرفيع محطة بارزة في مسيرته، يشارك من خلالها في أعمال المجلس، ولا سيما عبر اللجنة الاقتصادية والمالية، مساهماً في دراسة القضايا والسياسات العامة، وتقديم الرؤى الاستراتيجية الداعمة لمسيرة التنمية الوطنية وتعزيز كفاءة الأداء الاقتصادي والمؤسسي.

درس العلوم الدينية والفلسفة في حلقاتها التقليدية، ثم مضى في مسار مهني امتد قرابة ثلاثة عقود في المحاسبة والتدقيق والاستشارات والاستراتيجية والإدارة والتحول المؤسسي. وأمضى أكثر من عقدين في مواقع الشراكة والقيادة داخل بيوت خبرة دولية، وقاد مشروعات في الاستراتيجية والتحول وإعادة الهيكلة والحوكمة في سلطنة عُمان وخارجها.

وإلى جانب دوره الوطني، يقود مجموعة مريت وأكاديمية مريت في المملكة المتحدة، بوصفهما منصتين مهنتين وتعليميتين يشارك من خلالهما خلاصة خبرته مع القيادات والأفراد والمؤسسات، ويسهم في تطوير القدرات الاستراتيجية والإدارية والمهنية. ويحمل عدداً من الاعتمادات المهنية الدولية في المحاسبة والاستشارات والإدارة، من بينها: CPA، CFE، CMC، CMgr.

غير أن هذه الخبرة المهنية لم تكن منفصلة عن انشغاله الفكري؛ فقد رأى أن الروح والاستراتيجية، على ما يبدو بينهما من تباعد، تلتقيان في سؤال واحد: كيف تتحول الغاية إلى طريق، والرؤية إلى فعل، والإنسان من حال إلى حال؟ ومن هنا سعى في كتاباته إلى وصل التأمل بالعمل، والفكرة بأثرها، والرؤية بحركة الإنسان في الحياة.

أسس «مشروع نظرية النشأة الإسلامية» بوصفه مشروعاً فكرياً تفسيرياً داخل الرؤية الإسلامية، يدرس تكوّن الإنسان، وحركته الوجودية، ونموه، وسلوكه، ورسالته، ويصل بين التأصيل الفكري والخبرة الإنسانية والتطبيق العملي. وتتنوع مؤلفاته بين الرؤية الإسلامية، والإنسان والنمو، والتدبر القرآني، والسرد الأدبي، والإدارة والاستراتيجية.

يكتب عباس آل حميد من موقع الباحث المجتهد، مع التمييز بين النص المقدس والفهم البشري، وبين ما هو أصل ديني وما هو بناء تفسيري قابل للنظر والمراجعة. وتقوم كتابته على وضوح الفكرة، وصدق نسبة القول، واحترام عقل القارئ، والانفتاح على النقد والتصويب.

ويتيح كتبه الإلكترونية المعروضة في مكتبته الرقمية مجاًناً، رغبةً في وصول المعرفة واتساع الحوار حولها. وما يرجوه من القارئ ليس الموافقة السريعة، بل القراءة الصادقة، واختبار الأفكار، وإرسال التصويب حيث يراه؛ فالفكرة هي البطلة، والدليل خادم لها، واللغة طريق.

المكتبة الإلكترونية: <https://abbasalhumaid.com/library/>

كتب مشروع نظرية النشأة الإسلامية

الكتب الستة

1 «المنظومة الفكرية الإسلامية» — الأساس الرؤيوي وموضع الشرح الكوني.

2 «نظرية النشأة الإسلامية» — المتن المرجعي الضابط للنظرية.

3 «الذات الخالدة» — كتاب الإنسان وتكوّنه ومساره.

4 «لا حدود» — المنفذ الشعبي للقوانين والنقد المقارن.

5 «عِشْ سعيداً» — منفذ التدبر والمعاشة.

6 «رحلة كادح» — منفذ التجسيد السري.

دليل القارئ والمعجم المرجعي

ويضم كتاب «نظرية النشأة الإسلامية» في مطالعه دليل القارئ إلى المشروع وكتبه ومسارات قراءته، وفي آخره معجماً مرجعياً مبسطاً لمصطلحاته. وهما جزءان من الكتاب المرجعي نفسه، وليساً مجلداً مستقلاً عنه ولا كتاباً سابغاً داخل منظومة الكتب الستة.

المكتبة الإلكترونية: <https://abbasalhumaid.com/library/>

من مشروع نظرية النشأة الإسلامية

هذا الكتاب رحلة عميقة في جوهر الإنسان،
يكشف عن بنية الذات وطبقاتها، وكيف تتشكل
وتعي وتختار. يدعو إلى إدراك المسؤولية، وفهم
الغاية، والسير في طريق التكوين الداخلي نحو
حضور أصفى، ووعي أرسخ، وذات خالدة تتصل
بحقيقة وجودها.

ISBN 978-99992-2-614-1



9 78 9999 226141 >